تراتيل الأدب والثقافة

بقلم: حاتم إبراهيم سلامة

تراتيل الأدب والثقافة

المؤلف: حاتم إبراهيم سلامة

تصميم غلاف : مريم توركان

مراجعة لغوية : دعاء الشاهد

□

مقدمة

هذه صفحات أقدمها للقراء الأعزاء لتكون رواء لكل متعطش للثقافة وعاشق للمعرفة، وهي جملة من المقالات التي كتبتها في فترات متقاربة وكانت ثمرة لقراءاتي الأدبية المتنوعة، التي يجد فيها القارئ متعة للنفس لأنها تمثل باقة من الأزهار المنتقاة فكرت في جمعها وحفزني على ذلك ما رأيت من إقبال القراء عليها وتفاعلهم مع موضوعاتها، وحتى لا تضيع فيتبدد جهد هذا القلم الذي حرص دوما أن يسعد قراءه بكل جديد مفيد عبر موضوعات تثري عقولهم وتنعش أذواقهم، وترتقي بأفهامهم.

بين القديم والحديث كانت هذه الجولات التي استلهمت عبرها هذه المعاني وتلك الأفكار، وقدمتها إليك أيها القارئ في ثوب جديد ومعنى مختلف وإشارة مغايرة.. ستستفيد حقا لأن كل مقالة تحمل رسالة تريد للعقل والفهم أن يدركها ويقف على مراميها، فالأدب الحقيقي هو الذي يحمل رسالة وينقل فكرة ويغير سلوكا ويهدي إلى فضيلة ويدعو إلى قيمة، وبعون الله لن تجد في هذه المقالات شيئا مثيرا يخرج بك عن هذه الأهداف.. فقد نذرنا أقلامنا للحق، فهي تعيش به وله ومن أجله.

حاتم إبراهيم سلامة

الخميس 18-7-2024

سنجرج - منوف - منوفية

Salama227@gmail.com

احترموا تخصصكم

أنا واحد من هؤلاء الذين يوصفون بأنهم ذوو مواهب متعددة، ففي مطلع حياتي وإلى الآن وبالوراثة ظهرت في يدي موهبة الرسم والخط، ولما كبرت أكثر توجهت للخطابة والإلقاء، ثم احترفت القراءة، وتدرجت بعدها لهواية الكتابة وأنتجت فيها بقدري المستطاع، كما توجد لدي مواهب كثيرة في الحرف والأعمال التي أمارسها بنفسي، وأشعر أنها جميعا تنبع من ذهن وقاد، وعقل منمق، ونباهة في الذوق والتمييز، فيمكن أن تجدني نجارا أو سباكا أو حلاقا أو فلاحا أو بناء، وهي وجهات أجيد فيها كل الخطوات الأولى التي تؤهل لشيء من الإتقان لو أنني تفرغت لها.

وهذا الطرح لم أخطه لكم لأمدح نفسي بنفسي، أو أختال زهوًا بين من يقرأون سطوري، وإنما أردته مقدمة لشيء مهم أريد التركيز عليه اليوم وطرحه بين يدي القراء الكرام، ألا وهو (التركيز) وأهميته وضرورته، ليس لك وحدك، وإنما أثره ونفعه على المجتمع كله.

يقولون في المثل العامي :

(صاحب بالين كذاب)

وهي الجملة التي تجسد تحديدًا ما أريد قوله والتنويه عليه، فإن صاحب الحرفة والمهنة والموهبة، لو أنه ترك نفسه وروحه تتقسم أو تتشعب بين كل تلك الأعمال والرغبات، فلن يصل إلى شيء فيها من القمة والحذق والإتقان، وإنما سيصير كذلك الداعية أو الصحفي الذي نقول له في دورات التدريب: يجب أن تلم من كل علم بقدر يسير، حتى تستطيع أن تتعامل مع الطوارئ والمستجدات، وتخاطب كل الناس على اختلاف عقولهم ووظائفهم.. لكنه مع هذا.. لا يكون أبدًا هو المرجع المقصود في علم من العلوم، وعليه وإليه تشد الرحال، ومن فمه يطلب الطالبون بغيتهم في تعلمه.

وكل إنسان موهوب يسير بهذا المنهج الشمولي، فإنه يخسر كثيرًا في النهاية، لأن جهده تبدد وتوزع بين الحرف والهوايات، وفاته أن التركيز قيمة عظيمة تمنحه التميز والنبوغ.

لقد كان العقاد أديبًا، وشاعرًا، لكنه أفرد حياته للأدب المطعم بالفكر، أو الفكر المطعم بالأدب، وكذلك كان الرافعي آية الله في البيان، لم يكن روائيًا، ولم يوغل في الشعر رغم براعته، وكان شوقي أديبًا وصاحب بيان نال به رتبه أمير الشعراء، فقد تخصص في الشعر، ولم يتخصص في فنون الأدب الأخرى، حتى وإن كان من الأدباء والمفكرين من ضرب في كل زاوية بسهم، فإنك لا شك تجده قد تحامل بثقله على فن معين، فهو يهواه وإليه يميل أكثر.

لقد كنت تجد العالم قديمًا وقد صفوا تحت اسمه عددًا من الألقاب والوظائف، فهو المؤرخ الفقيه المفسر المحدث النحوي، ورأيي أن هؤلاء الناس قد بارك الله في أعمارهم وأعمالهم، وقضى على قدرهم بالعلم وفروعه، حينما قضوا حياتهم له، ووهبوه أرواحهم وأنفسهم، وهجروا في سبيله أوطانهم وأهاليهم.

يمكن للموهوب الخارق أن يتمكن في علمين، ولو أنه تمكن من ثلاثة، فإنه حالة فريدة من العقل الألمعي، لكني لا أعتقد أن يوجد هناك من يتنوع في مشارب العلم الكثيرة، لن يمنعه عنها عقال عقله وحدوده، ولكن يمنعه عنها رغبته وهواه في إجادة ما بين يديه من العلوم المحدودة، وهنا كانت دعوتنا للتخصص، بمثابة دعوة للنبوغ والإتقان.

كان يعجبني كثيرًا نجيب محفوظ، فرغم تخصصه في الفلسفة، وعشقه للتاريخ، سخر حياته وجهده الأكبر لمشوقه وغرامه وهو الأدب الروائي، فلم يكتب في الفكر، ولم يؤلف في التاريخ والفلسفة، ورحم الله مولانا الدكتور محمود عمارة، فقد كان رغم علمه الكبير المنداح، وقدرته على الحديث في فنون العلم الشرعي، إلا أنه دائمًا ما كان يعلن أنه داعية وأنه متخصص في الدعوة، فلم يحدث ولم يفت ولم يفسر، وإنما كان يطوف على كل هذه العلوم، حتى يفيد تخصصه في الدعوة إلى الله تعالى.

أحيانًا أجد بعض الأطباء والمهندسين، مولعين بالفنون الأدبية أو الدينية، فمنهم شاعر ومنهم كاتب ومنهم مفكر ومنهم محدث ومنهم داعية، لكننا نريد أن نسألهم: لماذا لم يتفوقوا في ميدان تخصصهم، ويحوزوا فيه قصب السبق؟ وهذا الخاطر هو ما كان يؤلم شيخنا محمد الغزالي -رحمه الله- ، حينما كان يندد بأصحاب المهن العلمية، ويصرخ فيهم بأنهم سيكونون أشد نفعًا لأمتهم، لو أنهم منحوا تخصصاتهم كل عنايتهم.

ومنهم من جذبته موهبته عن طريق تخصصه الذي نذر نفسه إليه، ليكون فيه عمله ومستقبله، لقد كان نداء الموهبة أشد وأقوى، فاجتذبهم وأجبرهم أن يهجروا مهنهم، ويعدلوا مسار تخصصهم وعنايتهم، حتى تفوقوا وتميزوا، وضرب لنا بعض أصدقائنا مثالا بالطبيبين إبراهيم ناجي، ونبيل فاروق، أحدهما الشاعر الكبير، والثاني رائد الكتابة في عالم الفانتازيا.

الجرأة على النقد

حينما مارست الخطابة والتدريس في قريتي، في سن مبكر، اصطدمت بعقول العوام الذين أسرتهم أفكار الشيوخ القدامى ممن نهلوا من معين الحواشي الصفراء القديمة، التي لم تخضع لعمليات التحقيق والتدقيق في العصر الحاضر، فتمحص الصحيح من الضعيف، والغث من السمين، من الأقوال والأحاديث والفتاوى والآراء، فكان قولي لديهم منكرا، وأفكاري لعقولهم وأفهامهم صادمة جافية، ومنهم من قابلني بهزء وسخرية وإعراض واستنكار، وكانت حجته في ذلك: أين أنت من الشيخ فلان وفلان؟!

لقد رفضوا هذه الآراء، ولم يعدوها اجتراءً على الفقه والدين، وإنما اجتراء في المقام الأول على الشيوخ الذين تربوا على أيديهم، ولهم في أنفسهم حظوة ومكانة، ولم يكن الفرق بيني وبين شيوخهم، إلا أنني من زمن متقدم قرأت في الكتب المحققة تحقيقا علميا، فكشفت الزيف من الكذب، والصدق من الخداع، أما الشيوخ السالفين، فقدموا للناس ما في الكتب الصفراء التي لم يطبع على غلافها إلا أسماء مؤلفيها فقط، دون أسماء المحققين والمعلقين المدققين، فقدموها للناس بعجرها وبجرها، وجدها وهزلها، وصحيحها وسقيمها.

إن الاجتراء على نقد السالفين محرم في أعراف العقول التي جُبلت على تقديس القديم، وعلتهم في هذا قول القائل: من كان متأسيا فليتأس بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، وغاب عنهم قول مالك -رحمه الله-: كل يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر وأشار إلى قبره -صلى الله عليه وسلم-.

وقد يواجهك أحدهم ليبطل قولك، ويشوه فكرك، ويعبئ الناس ضدك، ويمنيك بالهزيمة، لا بحجة ولا منطق ولا علم ولا بيان، وإنما بقولة واحدة وهي: لم نسمع بهذا ممن سلف، وهل أنت أعلم من فلان وفلان؟!

وبهذا لا تستطيع الجواب أمام هذه الحجة الجاهلة، التي لا تعترف بالعلم ولكن بالأشخاص، وقد غاب عنهم قول سيدنا علي -كرم الله وجهه-: اعرفوا الرجال بالحق، ولا تعرفوا الحق بالرجال.

يُعجبني العقل المفكر الملهم الذي يخضع للعلم وحده، وللفكر وحده، ولا يقدس أو يتعصب إلى أقوال العلماء والمفكرين، ويعتقد أن أقوالهم من مكملات الوحي والدين، ولا يدرك أن من قال بهذا الكلام وغيره، يمكن له أن يكون خطأ وغير منصف، ولكن الناس يرهبون مبادرة التفكير والاعتراض، لمجرد أنه من القدماء الذين ألبسوهم أثواب القداسة.

كنت أقرأ في كتاب الإحياء أن الإمام أحمد بن حنبل رأى الله -تعالى- في المنام فقال: (يارب ما أفضل ما يتقرب به إليك المتقربون فقال :كلامي يا أحمد قال قلت: بفهم أو بغير فهم فقال: بفهم وبغير فهم).

والحق أن مثل هذا الكلام يخالف دعوى القرآن التي أكدت فضل القراءة بالتدبر والتفكر، وإلا كان القارئ للقرآن لا يفقه ما بين يديه، أو الطائع الذي مني قلبه بالغفلة، فلم تكن عبادته إلا مجرد طقوس وحركات لا تغني بشيء، حتى ولو كان فيها مشقة وعناء، أو كمن يصوم رمضان ولا يأتي بما يوافق شرف الصوم من خلق واستقامة.

وبعضهم يسوق أدلة تؤيد ذلك، بحجة أن النظر في المصحف عبادة، لكن التعامل مع رؤيا أحمد، قد تسوق بعض الأفهام، لعدم الاكتراث بالتدبر، فتكون مخالفة للغرض القرآني.

كما أن دين الله لا يبنى إلا على الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، ولا يبنى على رؤى العلماء وأحلامهم.

ولعل ورود مثل هذه الرؤيا عن إمام جليل كابن حنبل، تسوق الكثيرين وتلجم ألسنتهم، فلا يعترضون ولا يستنكرون، وإنما يصدقون وينفذون، ولكن الحق أحق أن يتبع، مهما كان القائل والراوي، ومهما كانت مكانته وتفرده وتميزه.

ويمكن أن يكون تقدير صحة هذه الرؤيا بفهم آخر غير الذي قد يستقر في أفهام الناس، فلعله المراد في قوله: بفهم أو بغير فهم، لا ينافي حصول ثواب التلاوة وإن لم يفقه القارئ المعنى، لكن أين ذلك من القراءة المترسلة التي يقف عندها القارئ، ويتدبر معاني كتاب الله ومواعظه وأحكامه ووعده ووعيده.

قرأت في كتاب فيض الخاطر لأحمد أمين وهو يتحدث عن مقولة الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة التي قال فيها: (أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء)

وليس معنى أن القائل من الصحابة الكرام أن يسلم بقوله، ولا يخضع للتحليل والنقد بمنظار الكتاب والسنة وجوهر الإسلام، وهو ما فعله أحمد أمين حينما قال: إن هذا نظرغير صائب، وشعور غير نبيل، إنما تحب الإمارة للعدالة، وإيصال الحقوق لأصحابها، وتحقيق ما أمكن من إصلاح، أما حبها لنفع صديق وضر العدو، ونحو ذلك فنظر سطحي سخيف لا يصح أن يعرض على النشء.!

وقد أعجبني من أمين كونه مفكرا حكم بجوهر الإسلام وروحه ومقاصده، ولكنه لم يعجبني في استخدام بعض الألفاظ العنيفة الشديدة التي لا يجب أن تذكر مع مقام الصحبة وعظمة السلف.

كان يمكن له أن يعترض كما شاء ويترقق في العبارة قدر المستطاع، وهو الأدب المطلوب في التعامل مع عظماء الإسلام وصحابة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ولعله يلفتنا إلى قضية عظيمة في النقد، وهي الأدب، فلا يمكن أبدا أن يتحول النقد إلى معركة شخصية وتصفية حسابات، كما حدث من كثير من العلماء والأدباء والمفكرين في معاركهم وأفكارهم، وإنما لابد من الأدب.. وما أروع ابن المبارك حينما سئل عن رواية بعض المحدثين فرفضها وبين سقيمها، فقيل له نسألك عن صاحبها فأعاد على السامعين قوله في الأحاديث والرواية، ورفض الحديث عن صاحبها، ليعلم الناس أنه لا شأن له بالأشخاص، وإنما نقده في العلم وللعلم وحده.

جماهير بلهاء

كلمة الجماهير كلمة ضخمة وكبيرة وتمتلئ بكثير من الزهو والكبرياء والشعور بالقوة والنفوذ.

كانت هذه الكلمة قد أشيعت أكثر ما أشيعت في عهد ناصر، حيث تصورات الجماهيرية والثورية والخيالات الخرقاء الجوفاء التي كان يعيش فيها ذلك العصر، ولم يكن لها أي دليل من الواقع فلا سلطان ولا إرادة للجمهور في أي شيء، وإنما الناس كالدمى يتحركون وفق ما يريد السيد ويرغب السلطان.

والجماهير أكثر ما يمثلهم العوام الذين ينعدم الوعي في أفهامهم، ومن ثم تجدهم يرفضون التفكير أو التفهم أو التماس الأعذار، وتجد عواطفهم دومًا متحمسة ملتهبة لأي هفوة وتثور لأي كلمة، فالمهم أن تعبر عن نفسها باستخراج الطاقة والشحنة الكامنة، دون النظر للعواقب والنتائج، بل دون النظر للمبدأ الذي تحركت من أجله وثارت في تأييده أهو خطأ أم صواب، ومن ثم كانت هذه الجماهير هي الأرض الخصبة للفتن والوقود المستعر لكل مؤامرة أو دسيسة.

شعوب كثيرة يعمد حكامها إلى تغييب عقول جماهيرها حتى يسهل عليهم خداعها، وتوجيههم حسب رغباتهم ومرادهم، معتمدين على تضليل الإعلام الذي يجد عبر الجهل وقلة الوعي أرضا خصبة لغرس كل الدعاوى الخاطئة.

كان الخطاب الذي ألقاه عبد الناصر بشأن الانفصال عن الوحدة مع سوريا شاهدا قويا على غباء الجماهير التي ما تجمعت إلا لتصفق فقط، تصفق على قرار إرسال قوات لردع الحركة الانفصالية، ثم بعد ذلك تصفق عدة مرات لقرار التراجع والانسحاب عن التصدي لهذه الحركة، اسمع الخطاب بكل جملة وتفاصيلة ثم استمع للتصفيق الحاد مع نهاية كل مقطع، مع أن الكلام الأول يخالف الكلام الثاني ولكن شيئا واحدا هو المتفق عليه والمتشابه وهو تصفيق الجماهير.

نعم إنها الجماهير المغيبة عن الواقع ولا تتقن إلا التصفيق والإعجاب والموافقة وكأنها كالقطيع المسلوب الإرادة يوجهها الراعي حيثما يريد ويشاء.

وهذا المشهد يتضمن الأسى تارة ويتضمن الضحك والسخرية تارة أخرى، وأدهش منه ما روته السيدة روز اليوسف في مذكراتها أيام عدائها مع حزب الوفد، وقرار الحزب بفصلها والتبرؤ منها، فلم يكتف بإصدار بيان بهذا بل خرجت بعض جماهيره بمظاهرة عارمة أمام مبنى ومقر جريدة روز اليوسف، يقودها "حسن يس" تهتف بحياة النحاس وسقوط روزاليوسف .

ترامى الهتاف إلى سمعها وهو محمل بأبشع الشتائم القاسية والنابية، ضدها وضد جريدتها اتهمت روز هؤلاء الناس الذين هتفوا لها يوم عدائها لوزارة "توفيق نسيم" من أجل تعطيلها للدستور، بأنهم لا يمكن أن يكونوا قد فكروا في سبب خروجهم، أو يقلبوا الأمر على وجوهه، وإنما هو غشاء يضعه الزعماء على عيونهم فيرون الأشياء نفس الأشياء سوداء حينا وبيضاء حينا آخر.

تقول "روز": وغلى الدم في عروقي ولم أشعر إلا وأنا أندفع إلى شرفة المكتب، وأقف في مواجهة الجماهير الغاضبة، وكانوا يتوقعون أي شيء إلا خروج من يهتفون ضدها، وحينما رأوني صمتوا برهة من وقع المفاجأة، وهبطت أيديهم الملوحة، أما أنا فلم أنتظر بل هتفت وجسدي كله ينتفض بسقوط النحاس ومكرم، فردد الناس الهتاف خلفي بغير وعي على أن "حسن يس" زعيم المظاهرة لم يلبث أن أدركهم، فعادوا يرددون هتافاته ضدي وبحماسة أكثر التهابا.

وأمام هذا المشهد الغريب تشعر –ونحن في زمن الأثير أو القنوات الفضائية– أن هؤلاء الناس أو هذه الجماهير تمثال كجهاز التلفاز الذي إذا أدرته على قناة موالية سمعت منها التأييد، وهو ذاته الذي إذا أدرته على قناة معادية سمعت منها الهجوم والشجب، بينما الجهاز نفسه مسكين لا رأي له ولا إرادة، فهو جماد مصيره ونطقه ورأيه في يد من يملكه ويتحكم في إدارته.

إنها حالة اللاوعي التي صاحبت مصر فترات طويلة، وكان للجماهير الغافلة فيها تأثير كبير على صنع الرأي العام وتوجيه الشارع، حتى زال عهد "عبد الناصر"، واعترف الحكيم بما كانت عليه مصر فيما مضى في كتابه الخطير عودة الوعي.

ولله در القائل:

ها هم كما تهوى فحركهم دمى ...

لا يفتحون بغير ما تهوى فما

إنا لنعلم أنهم قد جُمّعوا

ليصفقوا إن شئت أن تتكلما

وهم الذين إذا صببت لنا الأسى

هتفوا بأن تحيا لهم ولتسلما

أين ذهب بريق الروح؟

لماذا فقدت المساجد بريقها الروحي، ولماذا مع كل مسجد قديم ينهدم، ويقوم خلفه مسجد آخر على فنون العمارة الحديثة، نشعر أننا فقدنا أرواحنا ومتعتنا، وإحساسنا بدفء الإيمان، وبريق الروحانية؟

هل هي مشكلة نفسية؟، أم حنين دائم لكل ماهو قديم؟، أم أن هذه المساجد الجديدة حينما شيدت قد كتب عليها أن تحرم الحس الإيماني والروحي؟، لماذا أتذكر صورة المسجد القديم، المفروش بالحصير، الذي أحيانا كانت تخرج منه بعض خصلات، تجرح القدم وتدمي الجسد، وأفضل الصلاة عليها بآلامها، عن هذه البسط الفاخرة، والفرش الغالية؟

لماذا كنت حينما أصلي في أي مسجد قديم، كنت أشعر أن الملائكة تحفنا فيه، ويوشك الصحابة أن يحلوا بيننا في ساحته، فيخيل إلى أنني حينما انتهي من الصلاة، سأجد أبا بكر الصديق عن يميني، وعمر بن الخطاب عن يساري.

حتى كلمة الخطيب والإمام، حينما كانت تخرج في المسجد القديم، كان لها مذاق آخر وطعم مختلف؟

أسئلة واستفهامات كثيرة، أغلب الظن في جوابها كما قلت: عوامل نفسية، وحنين الإنسان دوما إلى ماضيه الذي نشأ وتربى عليه.

المساجد القديمة، كنت أحب الجلوس فيها، والإيواء في فضائها، بينما هذه المساجد الجديدة، لا يوجد فيها ما يحفزني على البقاء والمكوث، فلا أشعر بحفاوة الإيمان التي كانت تتلبس بجسدي، ولا أجد قشعريرتها في صدري، وتكاد روحي تطير إلى السماء، حينما أركن في جنب من حنباتها ومعي مصحفي أقرأ وأسترسل في القراءة، يشجعني المكان قبل الرغبة في الثواب، على المضي والاستفادة من آياته المباركات.

التقط لوالدى -رحمه الله- بعض صور في مسجدنا القديم، فكان هيامي بالمسجد وأساي على فسحاته قبل أساي بذكرى أبي.

ولعل حديثي لا يمنع أبدا شكر أولئك العظام الأبرار، الذين بذلوا من مالهم وأقاموا وشيدوا بيوت الله، ولم يبخلوا عليها بمالهم، والتي لو تركوا لربما تهدمت على المصلين فأزهقت أرواحهم، ولكنها كما ذكرت، مجرد مشكلة نفسية، لا أعلم ما الذي يبعث عليها كما قلت وذكرت، فما فقدناه في هذا

الزمان، ليس في الروح وبريق الإيمان فقط، ولكنها سمة هذا العصر الذي فقدنا فيه جمال كل شيء، وليست المساجد وحدها.

لا أريد أن يشعر من حديثي، كل من مد بالإحسان يده إلى بيوت الله، وأن ما قام به من جهد، وإنفاق وبذل قد ضاع سدى، أبدا والله أبدا، فأجر أولئك عند الله، الذي لا يخيب رجاءهم.. ولكنها خواطر النفس، قد تجد من يوافقها وأيضا من يخالفها..وهي سمة عامة، في كل المساجد، وليس مسجدا بعينه.

إن شأنها شأن كل قديم، يملك الأصالة والقيمة والانبهار بالأثر، وهي تماما تشبه حالة ذلك الإنسان، الذي تأتيه بمصباح حديث، يتصل بالكهرباء، فيشع ضوؤه في كل مكان، ثم تأتيه بمصباح قديم يعمل بالزيت والفتيل، والذي يشبه مصباح علاء الدين، لا يتردد هذا الإنسان أبدا، أن ينظر للمصباح القديم، نظرة التراث والنفاسة والإعجاب، فيحفه بالاهتمام والعناية، وينقيه ويلمعه، ويضعه في مكان أنيق، مع أنه لا يمنحه من الضوء، كما منحه المصباح الجديد، الذي ملأ حياته بالنور والسطوع، عبر ضوء وإشعاع بدد سحب الظلام وكثافة العتمة.

هذا تماما هو القصد والحال، حيث ينال القديم من تعظيم النفوس، مالا يناله الجديد رغم براعته ودقته وإعجازه.

آه يا ليلى

تابعت مؤخرًا مسلسل **نسل الأغراب** الذي أذيع في رمضان الفائت، وكان مما استلفتني فيه أن أسماء ابني جليلة، هما **سليم وحمزة** وهذان الاسمان تحديدًا من أسماء المسلمين الأصيلة المعروفة، التي يتسمى بها الشعب المصري، مشيرًا بها إلى اعتزازه بهويته وأصالته الإسلامية، وشدة تقديره لشخصيات دينه اللامعة من أبطاله الميامين السامقين.

فاسم **حمزة** كما هو معروف، شهيد الشهداء وعم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبطل الإسلام الخالد.

أما اسم **سليم** فهو اسم السلطان العثماني الفاتح المسلم، صاحب البطولات والفتوحات الكبيرة المدوية، ومن قام برفع الظلم عن المصريين، حينما أزاح عن بلادنا وإلى الأبد ظلم دولة المماليك، وكان آخر سلاطينهم **طومان باي**.

ولعلي هنا والمناسبات تجر بعضها تترى، أن أتذكر تلك المعركة التي أشعل أوارها سدنة العلمانية وهم يصفقون للقرار الذي اتخذته الدولة من فترة بحذف اسم السلطان **سليم** من أحد شوارع القاهرة، وتغييره باسم البابا شنودة، ولعل الدولة لها عذرها السياسي في هذا القرار، والذي لا نتطرق إليه، أو أنها تريد به أن تعزز من مشاعر المواطنة في مصر بين المسلمين والمسيحيين، لكن فرحة العلمانيين بهذا القرار، لم تكن إلا لأنه في تصورهم بمثابة عدوان على شخصية إسلامية مرموقة، وهو ما يصب في خدمة أغراضهم التي تكيد ليل نهار للإسلام.

لقد حاولوا كثيرا أن يثبتوا للمصريين أن هذا السلطان المملوكي **طومان باي**، الذي ينحدر من دولة عميقة في الظلم والافتراء، مصري ويمثل المصريين، وما هو إلا مملوك لا يمثل مصر في شيء ولا ينتسب إلى شعبها المقدام.

ولكن لأن السلطان الذي كسره وقهره وقتله ذو هوية إسلامية، فإنهم حاولوا أن يصوروا للدنيا كلها أن **طومان باي** مصري ابن مصري، ويمثل المصريين.. وعجبا أمرهم.

ولقد أعجبني أحد المفكرين وهو يرد فرية العلمانيين المتشنجين بقوله:

هناك أكثر من مليوني مصري اسمهم **سليم**، ولا يوجد مصري واحد اسمه **طومان باي**.!

فأي الاسمين يمثل المصريين إذن؟!

إن هذا الرد لم يكن مفحما فقط، وإنما كان بمثابة ضربة على القفى، أو لطمة على الوجه.

ومثله تماما ما قامت به إحدى الفتيات حينما ألفت رواية اسم بطلتها **إيزيس**، وهو اسم الشخصية المصرية العريقة، لكن هذه المناسبة لم تفت العلمانيين حتى يولغوا فيها بأحقادهم، وينفسون منها عن حرقتهم، ففي ندوة بالبرنامج الثاني والتي أقيمت لتقييم الرواية، قالت المذيعة معلقة على العمل: "إن المؤلفة قد اختارت اسم **إيزيس** بدل **ليلى** هذه الرمة المدفونة في صحراء العرب، ولا يحسها أحد في مصر"

قالت المذيعة هذه الجملة النكراء، ولم يعترض عليها أحد، حتى رد عليها أحد العلماء الكبار وهو يستمع إلى هذا اللغو الفارغ، فكتب معلقا بمثل ما علق به المفكر السابق وقال:

" يا هذه إن اسم **ليلى** يوجد في كل صف من صفوف مدارس البنات، بحيث يشتمل الصف الواحد على عدة ليلات! وما وجدت **إيزيس** في كشف من كشوف الأسماء، فكيف تكون **ليلى** رمة مدفونة بصحراء العرب لا يحسها أحد في مصر! ولديك أسماء الفنانات وهن أقرب إلى التفرنج المبهر، فمن أسمائهن: ليلى مراد، وليلى فوزي، وليلى حمادة، وليلى طاهر، وليلى علوي وليلى جمال، وليلى نظمي ومن لا أعرف من حسان هذا الميدان!

ولست أجحد مقام إيزيس فأنا مصري عريق، ولكني أستنكر هذه الطفولة العابثة التي تهتف بما لا تعرف! إن اسم **ليلى** في الأدب العربي كاسم جوليت في الأدب الإنجليزي واسم شرين في الأدب الفارسي، وقد جرى المثل العربي بقول القائل: (كل يغني على ليلاه)"

لا تعجب ياسيدي الكبير، الجحود أعمى لايبصر الحقيقة، ويرمينا أصحابه كل يوم بما يصدم ضمائرنا وعقائدنا فإلى الله المشتكى.

تنبهوا لما خفي عنهم

كثير من الناس والشخصيات التي تحيط بنا، لديهم خبرات وإمكانات ومآثر وفنون ومدهشات وعجائب ومهمات، تستحق أن تُكتب وتخرج إلى الناس، ويستمتع بجمالها كل قارئ يسعى إلى المتعة والتزود من خبرات وعبر من سبقوه.

لكن هؤلاء وللأسف تعتريهم غفلة وغيبة وإهمال حينما لا يدرون أن ما لديهم يمكن أن يهتم به أحد، أو تصغى إليه أذن، أو يعمل فيه عقل باهتمام وتركيز.

ويعجب المرء لرجل بلغ الستين أو السبعين، وقضى حياته وأيامه محتكا بالناس غارقا في الأحداث والمواقف والذكريات، أيعقل ألا يكون لديه ما يكتب ويروى، ويعتبر منه، لاشك أن كل فرد من الطاعنين في السن، لديه ذخيرة ضخمة من المواقف والحكايات التي تضج بها أيامه وعقود عمره،

لماذا لا يكتب ويحكي ويروي علينا ما شهده من غرائب الناس وطبائع البشر، وما لمسه بيديه من تجارب علمته كثيرا من معاني الحياة؟!

كثير من الكتب القيمة، والصفحات المشوقة، التي يرويها أصحابها لم تكن في البداية مقدر لها أن تخرج في كتاب يضم ويجمع ما استقر في أوعيتهم من هذا المجموع، لولا أن قيض الله لهم من حولهم ممن تنبه لجمال ما لديهم، وحثهم على جمعه وطبعه في كتاب، صار فيما بعد مفخرة لهم، ودرة يسعى إليها طلاب المعرفة.

حتى بعض العلماء والمفكرين يمكن أن تجد لديهم الكثير في فن من الفنون، لكنهم لا يتوقعون أنه يمكن أن يكون كتابًا ملهما، ويخرج فيما بعد ليعد سفرًا له قيمته وأثره وتفرده.

في مقدمات كثير منهم، كنا نقرأ أن مادة هذا الكتاب لم تكن إلا محاضرات ألقاها صاحبها، ثم ألح عليه بعض تلاميذه أن تجمع في كتاب يفيد الناس، حتى إذا ما تحققت الغاية، تبين أن حس هؤلاء الطلاب كان صائبًا وسليمًا.

لي صديق لديه من المواقف والخبرات الحياتية، ما يدهش الألباب ويحير العقول، وكم تمنيت أن يجمع ما يعرف ويروي في كتاب، لكن عجزه عن الكتابة منعه من هذا، ولم أجد بدًا من أن أكتب وراءه ما أسمعه منه، وجهز لدي كتاب جميل تحت عنوان (**قال لي صديقي**) وبدلا من أن ينتسب الكتاب له، رأيت أن أنسبه لنفسي عوضًا عن جهدي فيه، وعقابًا لعجزه عن الكتابة.

ولعله حال الكثيرين ممن نراهم ونقابلهم في حياتنا، على اختلاف مستواهم التعليمي، حتى الجهلاء الذين لم يتعلموا في المدارس، تجد لدى الكثيرين منهم قصصًا وحكايات ومواقف تستحق أن يقرأها الناس ويتعجبون من أحوال أصحابها.

ولعل السبب في ضياع كثير من هذه الفرص، لا لأن أصحابها غافلون نائمون لا يبالون، ولكن ربما يرجع الكثير منها في غفلتنا نحن عن كثير من هذه الفرص الرائعة، فقد تكاسلنا أن نوقظها فيهم، ونشعل حماسهم للعمل فيها، ومن هنا كانت دعوتي لهذه اليقظة، في التنقيب عن هذه المبهرات التي تحويها عقول بعض الناس ومخايلهم.

كتب أحد المفكرين مؤخرًا كتابا أحدث دويا كبيرًا وهائلا، وكان الإقبال عليه حال طبعه، يتسابق نحوه القراء والمثقفون، ولكني دهشت حينما علمت أن هذا، كان مجرد حلقات يكتبها في البداية، ولم يكن في خاطره أبدًا أن يضمها كتاب مؤثر، ولكنها كانت بعد إلحاح كثير من أصدقائه، الذين كان لديهم بعد نظر، وحس مستقبلي، وأفق سباق، بما يمكن أن تحدثه هذه المادة لو ضمها كتاب، وهو ما حدث فعلا فيما بعد.

هناك بعض المتحدثين الذين يهربون من الكتابة هروب الفريسة من مخالب الأسد، يخافون منها ويشعرون أنها ميدان له أهله وصنّاعه، وأنهم لو طرقوها فلن يرحب بهم أحد، كما يرحبون بهم في ميدان الإلقاء والخطابة، وقد رأيت هذا بنفسي حينما كنا نترجى أحد الشيوخ أن يكتب بعض محاضراته التي يلقيها على المستمعين، لكن عجزه وانعدام رغبته في الكتابة، وتجشمه لعنائها، حال بيننا وبين أمنياتنا، مما جعلنا نسجل له محاضراته، ونحاول أن نفرغها، لنؤهلها بعد الصياغة اللازمة.. كتابا رنانا.

وكثير من هؤلاء النابهين لا ينقصهم فقط سوى التشجيع والتحفيز، ولفت أنظاهرهم لهذا الطريق الذي يمكن أن ينتجوا فيه شيئًا مهمًا، ويحدثوا فيه أثرا مذكورًا، ولله در هذه المرأة التي ظلمها زوجها ولم يعاشرها بالمعروف، ولم يتق الله فيها، لقد كانت عشرته لها مجردة من الإنسانية والذوق والرحمة والعدالة والأخلاق، وشاء الله أن تتحرر المسكينة من هذا الطاغية الأثيم، الذي كان وصمة عار في دنيا الرجولة، انفصلت عنه وبدأت تشعر بذاتها وإنسانيتها، وأبدًا لم تر في نفسها أنها خسرت شيئا، بل كسبت كثيرًا حينما ارتدت إليها إنسانيتها، واحترامها لذاتها، وشعورها بكيانها، وليت هذا فحسب، بل تفتقت مواهبها وملامح نبوغها، فأخذت تحاضر الناس وتعمل في ميادين التدريب، وتحكي كثيرًا مما مرت به من محن، وما رأته من أهوال على يد رجل لا يتقي الله، فاقترح عليها كثيرون ممن أبهرهم صبرها، وهالهم ما عانته وتجرعته، أن تكتب ذكرياتها المُرة، وتحكي قصتها الأليمة، وكيف استفاقت وخرجت من هذا الأتون الكئيب المظلم، إلى النور والحرية وتحقيق الذات، لتكون قصتها عبرة ومثالا، يعتبر به الناس، وتتأمل منه كل مظلومة، كيف يمكن أن تصنع لنفسها طريقا آخر، أكثر كرامة واحتراما لآدميتها فعلا أجابت الطلب واقتنعت بالنصح، ورأت في هذا المؤلف

سلوة لها عما مر من جراح، ونفعها كثيرًا في عملها ومحاضراتها، بل حفزها أن تقتحم ميدان التأليف بعدما نجحت تجربتها الأولى فكتبت مزيدًا من الكتب والروايات الأدبية، وصارت اليوم شيئا آخر، أكثر وضاءة ورقيا مما مضى، وأخذت تنظر وهي في مكانتها البهية، إلى تلك السنوات العجاف التي قضتها مع رجل جحود، لتكون في وجدانها أشبه بسجن معتم لا بصر فيه ولا بصيرة ولا نور.

أدباء عاشقون

كثير ما يقع الأدباء في الحب، وناهيك لو كانت نفس هذا الأديب نفس فنان، يعشق الجمال ويتذوق مشاهد الحسن.. لوجدته كل يوم غارقا في حب امرأة جديدة، وقد يعده الناس خائنا لعوبا وقد يصفونه أحيانا بالدناوة، ولا يدركون أن نفوس بعض الأدباء هكذا تكون حينما يرتئيهم الجمال أو يطل عليهم بدوره.

قالت لي يوما تلك المرأة الحكيمة: "إن هذا طبع فيكم معشر الأدباء، فيمكن لهذا الأديب أو صاحب الفكر أن يهيم قلبه كل يوم بامرأة جديدة، ويحب امرأة جديدة، وقد يظلمه الناس، حينما ينعتونه بأنه زير نساء لا يعرف معنى الوفاء؛ولكنه هو هكذا طبعه ، مجبول أن يكون بهذه العاطفة المتوهجة، أو المتشعبة والحاضنة التي تسع كثيرا من النساء".

كان معنى عجيبا حقا، عرفتني به تلك الحكيمة، كيف أدركته، وكيف استلهمته، خاصة أنها امرأة، ليس لها عمق بطبيعة الرجال؟! لكن قولها لا شك أعاد إلى نفسي تلك المقولة التي قالها دنجوان الصحافة قديما محمد التابعي، وكنت أستنكر ما قال، وأتهمه فيما صرح وكشف من مخبوء ذاته وطبيعة جنانه.

لقد قال: "جاء علي وقت وكنت على استعداد أن أعشق أربعين امرأة في وقت واحد".

مقولة قد لا تستنكر المرأة شيئا من حياتها كما تستنكرها، وترفضها، وتعلن عليها سخطها وتذمرها، لكنها حقيقة في طبائع كثير من الرجال، يجب أن تعترف بها المرأة دون غضب أو صخب، أو ذم أو قدح.

قد يتملكك العشق كثيرا، ويعصف بك حب المرأة الجميلة الفتانة، ليسلمك إلى داء عضال، ومرض فتاك، تضيع معه أحلام عقلك، ومنابت رشدك، لتظل أسيرا لصورة المرأة التي أذهلتك وملكتك،

إن هذا الحب لا يشبه بشيء من معارف الدنيا ومعالمها، إلا بالسحر، نعم هو نوع من السحر والبلاء، إن أصيب به الإنسان، سهر الليل وجافاه المنام.

ولعله صورة من عبودية الإنسان للإنسان.. واستعباد عنصر لعنصر،

وأكثر النساء، يسعدن وينتشين، حينما تجد إحداهن من يحبها، ولا تدرك عمق ما يحيا به هذا العاشق الولهان من آلام انتابته جراء جمالها ودلالها.

إنها سعيدة مسرورة غير عابئة بمحنته، ولعل هذا الموطن من أكثر المواطن التي تفقد المرأة فيها مشاعرها وإحساسها وإنسانيتها، فلا يهمها أن يكون هناك قلب يحترق، فليحترق أو حتى يتفحم، فالمهم أنها أسرته، واستعبدته، وجعلته تحت أقدامها.. ليتحول هذا الجمال إلى نوع من الثقة أو صورة ممجوجة من صور الغرور.

أدرك سلفنا العظيم خطورة هذا الداء الوبيل داء العشق، وعرفوا كيف يتعاملون معه، وكيف يداوون بلاءه، حتى يبرأ منه الإنسان ويشفى منه فؤاده.. وأنا واحد من الناس كأي أحد قد أصبت به في مراحل من حياتي، فلما تداويت بعلاجات السلف الصالح، خرجت سالما والحمد لله، دون الولوغ في غيبوبة هذا العشق وسكره.

وحتى أنني اليوم، أرى تلك التي سيطرت على عقلي يوما، وليس لها عليه اليوم أي سبيل أو غاية أو قوة او سحر أو سلطان.. لأتعجب وأقول: كيف سمح عقلى لنفسه أن تكون ذليلا لهذه المرأة يوما ما؟

ما الذي أدهشه فيها وأشغل مرابض ولعه بها، قد تكون جميلة، لكن جمالها لا يصل إلى حد هذا السحر الذي يضني العقول ويذهب بالأحلام، ويأسر العقل ويشعل اللهفة.!

نعم تدور هذه المحادثة بيني وبين عقلي، حتى أدركت يوما أن هذا الحب العاصف، وهم كبير، وموجة من الإعجاب جارفة، تحتاج منا فقط بعض المجاهدة، حتى تمر محنتها وتنطفئ قوتها، لننعم بعدها بالحرية العظيمة، التي كان يمكن أن تستبدل بالعبودية لامرأة.

نعم بعض المجاهدة، والتدريب على الهجر، والانشغال بالطاعة، مصحوبا ذلك كله بالدعاء والمناجاة، فلا تلبث إلا أياما قليلة بعون الله، وتخرج من المحنة بطلا جسورا، لا تهدي عقلك وقلبك

وحبك وعشقك إلا لربك،ولا تستطيع امرأة مهما تربعت على عروش الحسن والجمال، أن تحرك فيك شعرة واحدة، أو تمس قلبك بخاطر يغويه.

أما تركك لسبل العلاج، واستسلامك لهذا الشعور الذي يجعلك عبدا ذليلا؟ فتبيت وتصحى هائما في خيال امرأة، وصورة امرأة وظلال امرأة، وتظل صورتها أمامك شاخصة في خيالك نوما ويقظة ذهابا وإيابا حلا وترحالا، قعودا ووقوفا؟

فهذا مالا يحمد عقباه ولا يليق بالأسوياء، ولا يقبله ذوو العزائم، ويؤدي لنتائج فادحة قد عبر عنها الشاعر الحكيم:

تعلق بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة فلما توغل فيها غرق

جرب وجاهد وقاوم لتسترح.

قد ترى امرأة جميلة وتستحسن صورتها وهيأتها وتعجبك منها روحها وأناقتها، وتصرح لها أحيانا بذلك وتبديه، وهو نوع من الإعجاب بهذا الجمال ليس أكثر.

لكنك لو شعرت بانتقال نفسك من حالة الإعجاب إلى حالة المرض، فشمر عن ساعدك وابدأ في العلاج وانتصر لحريتك، فليس هناك أغلى من حريتك.

على كل من أصابه هذا البلاء أن يراجع كتاب الداء والدواء لابن القيم فبه إفادة عظيمة وهداية قويمة لكل حائر مصاب، أضناه العذاب.

شبح المعاش

صحوت من نومي متثاقلا، لكنني ذهبت كعادتي مع إشراق كل صباح، لأعد قهوتي التي أتناولها حتى يستقيم مزاجي ويعتدل يومي.

إنني هذه الأيام أصارع الوقت والحياة، لانتهي من أكبر قدر من الكتب التي اخترتها من رفوف مكتبتي، أريد التهامها قبل مرور هذا العام الذي أوشك على نهايته، وقد شغلتني عنها بعض الهموم والخطوب.

كانت مصادفة غريبة حينما كنت أتأمل كتاب صديقي الدكتور منير لطفي (**حياتنا بعد الستين**) وما فيه من بصائر لمن بلغوا هذه السن، كيف يتعاملون مع مستجداته وأيامه وأطواره.

لفت نظري جمال الكتاب وروعة طباعته وخلابة غلافه، وهو ما حركني سريعًا أن أجري اتصالا، بهذه السيدة التي تطبع لي كتابي، ووعدتني أنه سيكون قريبا بين يدي.

هاتفتها حتى أطمئن على إنجازها لوعدها: هل انتهت من طباعته، أم أنه مازال متجمدًا لم يصبه الدور حتى يخرج للنور، كنت قلقًا ومتعجلا أن أرى ثمرة فكري ماثلا أمامي يسر ناظري ويبهج فؤادي.

تماما كهذا المولود الذي ينتظره أبواه ليكون قرة عين لهما، وزهرة مشرقة تمزج حياتهما بمعاني الجمال.

رن الهاتف وسرعان ما ردت بكلمات سريعة خاطفة: اتصل بي مرة أخرى فأنا في محاضرة.. لم تكن السيدة صاحبة الدار صغيرة في السن، ولكنها في عقد الخمسينات، فتعجبت من جوابها، فأي محاضرة تستمع، لا يمكن طبعا أن تكون محاضرة جامعية! ولعلها في ندوة أدبية، أو لبت دعوة صالون لأحد المثقفين، أو اضطرتها الظروف أن تستمع لأحد المحاضرين من المفكرين والأدباء في منتدى أو لقاء.

ومرت بضع ساعات حتى عاودت اتصالي بها مرة أخرى، فقالت لي: معذرة لم أستطع أن أجيبك لانشغالي، لكن كتابك قيم وقريبًا جدًا سيرى النور وتسرك رؤيته.

فرحت كثيرًا وشكرتها أكثر، ثم لا أعرف ما الذي دعاني متطفلا أن أسألها عن المحاضرة، ومن كان المحاضر، وفي أي صالون كانت الدعوة؟

فما دام أمرًا يخص الأدب والفكر، فأحب أن أكون منه على بينة ودراية، أتتبع أخبارهم وأستمع لجديدهم، ولا شك أن في جوابها ما يفيد.

ثم كانت المفاجأة حينما أخبرتني أنها محاضرة في الجامعة، لأنها تدرس دبلومة تؤهلها لدرجتي الماجستير والدكتوراه، تعجبت مما قيل، ماجستير ودكتوراه ودبلومة ؟!

لكنك معينة وموظفة، ثم قفزت بي الغرابة لأتناسى بعض ذوقي، حينما أخبرتها أن سنها قد تقدم وهذا لا يناسبها ويجهدها كثيرًا، لما يتطلب من السفر والقراءة والتحصيل، والجري وراء المشرفين.

صمتت بعض الشيء ثم قالت:

لن أقول لك: إنني طالبة علم، ولن أقول لك: إن المرء يطلب العلم دون اعتبار للسن والوقت، ولن أقول لك: إنني أهوى الدراسة، ولن أقول لك: إنني أحب لقب الدكتورة، لأتباهى به بين الناس، وأرفع به من قيمة نفسي.

لكن أصدقك القول حتى تتعلم وتؤهل نفسك لذات الخطوة حينما تبلغ من العمر ما بلغت، فهناك بعد سن الستين شبح ينتظر كل موظف يترك عمله، اسمه سن المعاش، تتبعه أشباحا أخرى تخرج من غيومه، كالوحدة والفراغ والملل، الذي لو استبدت بالإنسان لقتلت فيه معنى الحياة، ودمرت نفسه، وجعله عرضة لاكتئاب بغيض.

نصيحتي لك أن تجتهد من اليوم وتؤهل نفسك لما بعد يوم المعاش، ماذا تفعل وكيف ستكون، وكيف ستحيا أيامك، وما الدور الذي تقوم به، بل ما حلمك الذي ترجوه..

احذر أن تركن إلى البيت وتأوي إليه، لتكون كالأساس القابع في جنباته لا قيمة لك، ولا طموح ترنو إليه، ولا هدف يشغل حياتك لتحققه، ولا غاية تسعى إليها بوقتك الطويل.. واعلم جيدًا أنك لو أهملت هذا النصح، ولم تعمل لذلك اليوم، فقدت أهلت نفسك للضياع والوحشة والمرارة التي ستمتزج بأيامك وحياتك فتحيلها نكدة آسنة.

أنا أدرس وأؤلف وأعمل وأقرأ وأحضر الندوات، وأستمع للأدباء والمفكرين، وأستعد قريبًا لخوض رسالة الماجستير، ومن بعدها الدكتوراه.

لا يمكن أن أقعد أبدًا

لا يمكن أن أعجز أبدًا

لا يمكن أن أضيع أبدًا

لا يمكن أن أكون فريسة للاكتئاب أبدًا.

لا يخدعنك بعض هؤلاء السذج الذين يقول لك أحدهم: إنني أنتظر المعاش بفارغ الصبر حتى أستريح، وأعيش حياة هانئة مريحة، بلا أتراح ولا هموم ولا مشاغل.

ولا يعلم المسكين، أنه يتعجل سجن المعاش لا راحة المعاش.

تأملت كلامها وما فيه من حكمة عظيمة، وموعظة بليغة، وأكبرت فيها همتها وطموحها..

حقا حينما يصل المرء إلى هذا السن ويبادره شعور بأنه لا قيمة له، ولا عمل يؤديه، ولا مهمة تحتاجه في الحياة، فياله من إحساس عاصف كئيب يأكل النفس حسرة وكمدًا.

وفور كلامها الذي وخذ عقلي بما يحمله من صواب، تذكرت قريبًا لي، يوم أن خرج على المعاش، وإذا به يتحول لإنسان عصبي ثائر، غير الذي كنا نعرف عنه من هدوء واتزان، كان كل يوم في خلاف وشجار مع زوجته وأولاده، حتى كان أحدهم يدعو عليه أن يموت، وتنتهي حياته حتى تنتهي آلامهم معه.

وظل هذا الرجل على حاله، حتى أخذته أزمة قلبية في شجار مع ولده الأصغر، وكانت النهاية التي لم يكن سببها قلة أدب الأبناء، وانعدام خلقهم، ولا كونه صار عصبيا ثائرًا، وإنما لأنه لم يعد عدته لهذا اليوم المشهود، يوم المعاش.

ما زلت حتى الآن لا أعلم ما هذه الصدفة العجيبة التي جمعت بين هذا الحديث، وبين كتاب صديقي **(حياتنا بعد الستين)** هل كان ذلك مجرد صدفة أن يكون الحديث في ذات الوجهة التي يحمل الكتاب عنوانها، أم أنه كان إرهاصا بما سأسمعه بعد لحظات، أو لعلها كانت إشارة مهمة تريد أن توجهني من اليوم للعمل لمثل هذا اليوم الذي فعلا يستحق أن يسمى شبحًا.

إلى الفتاة التي سألت

قرأت لإحداهن تقول لأصدقائها وصديقاتها: دلوني على رواية جميلة شيقة.

استوقفني الطلب، واستدعاني الخاطر لأقول مخاطبا ذاتي:

يا لغفلتهم ولهوهم.

يبحثون كل يوم عن الكتاب الشيق، والكتاب المثير، والكتاب المسلي، والكتاب الممتع، والكتاب المفيد، ولم يكلفوا أنفسهم يوما أن يبحثوا عن الكتاب الهادي.

نعم الكتاب الهادي.. هو ذلك الكتاب الذي يخاطب الروح، ويصلح النفس، ويهدي القلب، ويهذب الشعور، ويملأ الصدر والوجدان معرفة بالله وخشية منه.

وهم حينما ينصرفون لكل هذه الألوان من أنواع الكتب، إنما يعطون الصورة الكاملة لهذه الدنيا التي سيطرت على عقولهم، واستبدت بأهوائهم.

إن كتب الهداية لا يبحث عنها إلا راغب في ربه آملا في رضاه.

يمكن لهم أن يكون لديهم قسط من قراءة الكتب الهادية، وقد أرادوا الترويح عن أنفسهم، ولكني أخاطب قوما في خصومة تامة مع كتب الهداية.

بين يدي اليوم كتاب كتبه **ابن بار** عن والده الشيخ، وقد سماه (**في صحبة رجل صالح**) وأخذ بداخله يصف رحلة هذا الوالد في طاعة الله، فإذا النفس تتحرك، والروح تهيم، والقلب يحلق، والصدر ينشرح، وأحاسيس تغمر العقل بالرغبة في طاعة الله.

شعور ما أجمله وأبهاه.. شعور أفقدتنا إياه أهواؤنا وغفلاتنا.

قدر لي باكرا أن أمتلك كتبا تخاطب الروح، وتنمي مشاعر الإيمان، وتعظم معها البواعث الروحية كلما تصفحتها وقرأت في أخبارها.

وعلى قدر ما كانت هذه الكتب تشحذ الهمم، وتبهج النفس، إلا أنها كانت ترميني بألم التقصير ووخز التفريط في جنب الله.

عرفت كتب مكاشفة القلوب، وعرفت الزهد لأحمد، وعرفت شعب الإيمان للبيهقي، وعرفت قوت القلوب لأبي طالب المكي، ثم عرفت الإحياء للغزالي وما أعظم مافي الإحياء.. فلا تكاد تقرأ في كتاب من هذه الكتب، حتي توشك أن تبكي من شدة تقصيرك وبعد حياتك وانغماس أيامك في اللهو والخسران. لا تقرأ في أحدها، حتى تشعر وكأن بصيصا من النور يسري في عروقك ويخالط دمك.. ويسوقك سوقا إلى مرضاة الله.

لم يهمل كثير من الشبان والشابات كتب الروح والإيمان، ولم هم في غفلة عما يسارع بهم إلى ربهم سبحانه؟!

كان هذا الابن البار الذي كتب عن والده الرجل الصالح، يصف حرص والده على الصلاة في المساجد، وكان يقول: يحرص عليها حتى في البرد الشديد والامطار الغزيرة.. وهو شيخ مسن كبير..كان هذا في الفقر العنيف ولم تبلغ الحضارة في الأرياف مبلغها في المدن.

قفز إلى ذهني حالنا اليوم حيث يقوم أحدنا بالليل يريد أن يتوضأ أو يغتسل، فلا يحمل هما لوجود السخانات التي تصدر له ماء ساخنا يسحق البرد، ويعيد لليد حيويتها ونشاطها، ورغم هذا يقصرون في صلاة الفجر، بحجة البرد وقضم الصقيع.

قوة التأثير

هناك قوم يتأثرون بالمكتوب، وهناك آخرون يتأثرون بالكلام المنطوق، وهناك غيرهم يتأثرون بالحال والواقع المشاهد.

وقد كان أحد الدعاة يدافع يومًا عن تعظيمه لشيخه فكتب يقول: "يعيب علينا الناس أننا نعظمه، ولدينا العذر في هذا فقد رأينا رجلا من السلف الصالح يمشي على الأرض".

أي أن شيخه تجسد أمامهم في القرن العشرين، في صورة السلف الصالح، وما قرؤوا عن أخلاقهم في الكتب.

لا أعرف هذه الحالة الغريبة التي كنا نشعر بها ونحن في دروس الراحل الفقيه الكبير الشيخ حسن أيوب؟ لقد كان الرجل مؤثرًا، وصوته نافذًا في أعماق النفس، ضاربًا على أوتار القلب.

والتأثير وقوته وفاعليته في الغير، موهبة وخاصية وخارقة، لا يتمتع بها الكثيرون، وإذا أوتيها المصلحون كانت أسهل أسلحتهم وطرقهم في تحقيق مكاسب كبيرة، تخدم رسالتهم الإصلاحية، وتوفر لهم كثيراً من الجهود، حتى يجمعوا الناس على ما يريدون.

لقد عرفت الدنيا بعض الأئمة، ممن كان يؤثر في الناس، لا بكلامه ولا حاله ولا قلمه، بقدر ما كان يؤثر فيهم بمجرد النظر إلى عينيه، التي كانت تحمل كثيراً من المعاني والقيم والغايات، بل قال بعضهم عن شيخه: كانت عينيه تبعث على همة عظيمة، وكان إذا وقف ليخطب سحر الناس ببيانه، فلا يسعك وأنت تسمعه، إلا أن تسلم له بكل جوارحك.!

وفي حياة السلف الصالح من كان يقف ليعظ الناس، فكان من شدة تأثيره أن يموت بعضهم من بالغ وعظه وأثره في أنفسهم.

وعلى المصلح أن يتحسس مناط التأثير في نفسه، هل هو يؤثر في كلامه، أم في قلمه، أم في مواقفه العملية، وليوغل فيه حينما يتبين له المراد، حتى يكون أكثر قربًا ونجاحًا من تحقيق غايته.

ولكن الفعل يملكه كل أحد، فما عليك إلا أن تنفذ الحق في نفسك، حتى يراك الأخرون ويتبعونك فيه، ويعجبون بتمسكك به، لكن الأصعب والذي يعد من قبيل المواهب الخاصة، أن يكون قولك مؤثرًا تبعث به الحماسة، وتفجر به الثورات العارمة، وتوقظ به النفوس الخاملة، إن الخوميني فجر الثورة بأشرطة الكاست، وقلب بخطبه الدنيا على شاه إيران، حتى سقط عرش الطاووس، وقال أحمد أمين: "حدثني من أثق به: أن الأستاذ جمال الدين الأفغاني، كان يرتطن عجمة، ولم يكن فصيح اللسان، ولا سلسل القول؛ ولكن تجلس معه فيشعلك نارًا دونها فصاحة الفصيح، وبلاغة البليغ؛ لأنها النفس مستودع كهربائي، قوي يصعد أحياناً ويضئ أحياناً أخرى، ويدفع للحركة أحيانا".

وهناك من يؤثرون في الناس بمظاهرهم وهيأتهم، فما أن تراهم، حتى تحب أن تكون مثلهم، كأن ترى شيخًا معممًا ذا لحية كثة، فتحب العلم والعلماء، أو تشاهد غيره في لباس الزاهدين، وثوب المتصوفين، فتحب الزهد والتصوف.

وتعمد الحركات دومًا إلى تنصيب مناط قيادتها، لمثل هذه النماذج المؤثرة، التي تتمتع بكاريزما قوية حتى يكون لها نتائجها المؤثرة في جمع الناس حولها وتأييدها لفكرتها، وتعمد في صحفها إلى تصدير أقلام المحترفين منها، الذين يملكون أو تملك أقلامهم إيقاظ مشاعر الناس.

إن مثل هذه المظاهر والمؤثرات يمكن أن يكون لها فعل السحر في الإنسان، ومع وجودها لا يلتفت الإنسان إلى شيء يضره أو ينفعه، لقد كان ناصر يتمتع بكاريزما قوية، يؤثر بها على الناس بهيئته وخطبه، وهو في ذات الوقت قد أغرق البلاد في الهزيمة والضياع، ومن العجب أن الناس حتى هذه اللحظة تجد الكثيرين منهم ما زال متأثرًا به، يعلق صورته، ويعيش في أيامه، ويراه رمز الخلاص، وقد كان في حقيقته رمز الهوان والضياع والهزيمة.

لقد كانت قريش تعيش في فزع كبير من القرآن الكريم، الذي كان يردده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بداية الدعوة، لأنه كلام مؤثر، كانوا لا يخشون منه على العامة وحدهم، وإنما كانت فتنته تتسرب إلى الخاصة أنفسهم، حتى قال فيه سيدهم قولا ما قيل فيه من قبل: والله إنه لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

ولا شك أن فاعلية التأثير في القول والقلم، قد تضيع وتنتهي وتذوب لو خالفها واقع الكاتب أو المتحدث، فكيف يأمر بالفضيلة وهو عربيد، وكيف يحث على البطولة وهو جبان؟

فإذا كنت تتمتع بملكة التأثير في أمر من الأمور الثلاثة، ولا تفتقر في غيرهما، فاحرص ألا يراك الناس فيما لا أثر لك فيه، حتى لا يضيع تأثيرك فيهم، فيما تملك التأثير فيه.! كأن تكون مؤثرًا في الحديث، لكن حالك لا يوافق أطماح لسانك.

والتأثير مستويات: فهناك من يؤثر على العامة، ولا يؤثر على الخاصة، وهناك من يؤثر على الخاصة، ولا يؤثر على العامة، وهناك من يؤثر على كلا الطرفين.

وعليك ألا تستهين بأي شيء أمامك، فربما كانت لديه قدرات خارقة، وسرًا يحتويه بين نفسه، يمكن به أن يكون ذا تأثير عظيم، حتى الضعف والتمسكن وقلة الحيلة والظلم، يمكن أن يكون لها تأثيرها العارم في نفوس الناس وتهييج الجماهير، لو حدث ما يثير مهجهم له.

التراث الضائع

لا يفوت المسلم اللبيب وهو يقرأ عن وحشية التتار وما فعله بأرواح المسلمين وعشقهم لسفك الدماء، لا يفوته وهو يتألم من هذه الوحشية في هدر الإنسان، أن يتألم من وحشيتهم في هدر الكتب.

فما فعلوه في مكتبة بغداد كان أمرًا مريعًا يهتز له وجدان الزمان، وتئن له ذكريات التاريخ.

"لقد أكل الحقد قلوبهم على كل ما هو حضاري في بلاد المسلمين.. لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين؛ فالمسلمون لهم تاريخ طويل في العلوم والدراسة والأخلاق، عشرات الآلاف من العلماء الأجلاء في كافة فروع العلم، الديني منها والدنيوي.. لقد أثرى هؤلاء العلماء

الحضارة الإسلامية بملايين المصنفات، بينما التتار لا حضارة ولا أصل لهم.. إنهم أمة لقيطة.. نشأت في صحراء شمال الصين، واعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها.. لقد قاتلت هذه الأمة كما تقاتل الحيوانات.. بل عاشت كما تعيش الحيوانات.. ولم ترغب مطلقاً في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا.. لقد عاشوا حياتهم فقط للتخريب والتدمير والإبادة.. شتان بين هذه الأمة وبين أمة الإسلام، بل شتان بين أي أمة من أمم الأرض وأمة الإسلام.. وهذا الانهيار الذي رأيناه في تاريخ بغداد من المستحيل أن يمحو التاريخ العظيم لهذه الأمة العظيمة"

و كانت مكتبة بغداد تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام.. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون، من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك.. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.. فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم، الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمان.

لقد كانت مكتبة عظيمة بكل المقاييس.. ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس.. وسبحان الله!.. لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التي مرت بها مكتبة بغداد.

وعندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة 636 هـ (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط!) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تمامًا.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه.. وكان اسمه **"كمبيس"**، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد".

وهذا ما جنته يد الأعداء الحاقدين، ولكن ما بالك لو كان الضياع والإهمال سمة الأمة ذاتها، وفعل أبنائها في تراثها، يوم أن يهملوه فلا يقرؤونه، أو يتناسونه ليضيع منهم!

وقد كنت أقف كثيرًا أمام تلك المقولة التي نقلت عن الإمام الشافعي -رحمه الله- في الليث بن سعد حينما قال فيه: "رحمه الله كان أفقه من مالك، ولكن قومه ضيعوا مذهبه" لقد ضيعوه ولم يحفظوه

بالكتابة والنقل والتدوين، ولكن المصريين مع شهادة التاريخ لهم بالإهمال، استطاعوا مع الزمن وفي من قال فيهم هذه العبارة أن يجبوا ذلك الشين، حينما تلقوا الشافعي نفسه واحتضنوه في ديارهم ، ونقلوا ودونوا علمه وفقهه وتراثه.

إن الأمة التي تهمل تراثها وتتركه يضيع، إنما تهمل حاضرها ومستقبلها قبل أن تهمل ماضيها، وكم أحزن لكثير من العلماء العظام، الذين ضاع أثرهم وأهملت كتبهم وجرفها النسيان وأهملت ثم بليت وانتهت.

وأمتنا كانت حريصة دؤوبة منذ مئات السنين، وفي تاريخ حضارتها الخالد، على نقل العلم وإنشاء المكتبات ونسخ الكتب؛ لكن بعض العصور التي على فيها عنصر الإهمال، قد غشيتها وسيطرت عليها حتى تبدد فيها كثير من التراث، وضاعت أعداد مذكورة من الكتب، كما كانت هناك أحداث جسام خارجة عنها، كما حدث فيما ذكرناه إعصار التتار واجتياحهم لبغداد، ورميهم بالكتب في نهر دجلة حتى اسودت ماؤه، وهي جريمة عالمية بكل المقاييس، لأن التراث الذي أذيب لم يكن خسارة للمسلمين وحدهم، وإنما للعالم والحضارة الإنسانية كلها.

وكم دهشت وأنا أقرأ عن كتاب من أهم وأعظم الكتب التراثية في الإسلام، وأنه تاه وضاع ولم يعثر له على أثر، وكثر حوله الباحثون، حتى اضطر بعضهم لفقده أن يرثيه ويئن لضياعه، وأخذ البعض الآخر يجمع أقاويله ونتفه التي ذكرت في كتب متفرقة، ويجمعها بأنها أجزاء من هذا الكتاب الضائع والتراث المفقود ويتناولها بالتحليل والتدقيق.

(أضاعوني وأي فتى أضاعوا)

ظل هذا الكتاب معروفًا ملموسًا منذ أن ألفه صاحبه، حتى جاءت القرون الأخيرة، ومرت فترة قاسية عصيبة على العالم الإسلامي، ومعاناته من الاستعمار الأوروبي، وبدأ هذا الكتاب العظيم يغيب عن الأنظار، وتفتقده الأيدي، وتخلوا منه المكتبات، واتفقت الدنيا كلها أنه صار من التراث المفقود الذي يُبكى عليه، حتى كانت المفاجأة المذهلة، حيث اكتشفت ثلاث نسخ من هذا الكتاب القيم العظيم، نجت من الضياع والبلى والدمار والإتلاف وعوادي الزمن، فكانت النسخة الأولى عند أمراء نجد من آل الرشيد، والثانية في دار الكتب المصرية، والثالثة في دار الكتب الحمدية بحلب،

وأسرعت مطابع آل الحلبي في مصر لطبعه وإظهاره للنور، بعد زمن كبير من الاندثار والضياع والفقد، وكان لظهوره دويًا عظيمًا وفتحًا كبيرًا على المسلمين، بعد وفاة صاحبه منذ أكثر من ألف عام.. وهذا الكتاب هو تفسير الطبري المسمى بـ (**جامع البيان في تأويل القرآن**).

وللكتاب مكانة كبيرة في تاريخ وحياة المسلمين، وقد نال السبق والأستاذية في فنه، حتى أشاد به كبار علماء الدين، وعد صاحبه أبا التفسير، كما عد من قبل أبا التاريخ.

قال عنه **السيوطي**: "أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله"

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: "هو أبلغ التفاسير وأصحها وأعظمها قدرًا فليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين" وناهيك عن أن يشهد ابن تيمية لكتاب بالسبق في التفسير، وهو الذي كان آية في التفسير.

وقال **أبو عمر الزاهد**: قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره، فما وجدت فيه حرفًا خطأ في نحو أو لغة.

ويقول الشيخ الدكتور **الذهبي**: "يعتبر الطبري من أقوم التفاسير وأشهرها وهو المرجع الأول عند المفسرين".

وكنت قديما أقرأ في كتاب (**ثقافة الداعية**) لشيخنا القرضاوي، فإذا به يقر ما أقره السلف والخلف من أن الطبري أفضل التفاسير، وهذه الأفضلية تعود لتمكنه وتناوله للتاريخ واللغة والأحكام والأسانيد فهو كتاب مفيد متنوع.

اسمك ونقيضه

من تعاسة الدنيا أن يتسمى الرجل والمرأة بعكس صفتهما، كأن يسمى جميلا وهو قبيح، وكريما وهو بخيل، وطاهرا وهو نجس، وصالحا وهو فاسد، وعليا وهو دنيء، أو ساميا وهو متسفل، أو ضياء وهو مظلم، أو فرجا وهو كرب، أو ناصرا وهو متخاذل، أو عادلا وهو ظالم.

أو أن تسمى المرأة حنانا وهي قاسية، أوهدى وهي ضالة، وانتصارا وهي انهزام، ووفاء وهي خيانة، وصفاء وهي عكرة، أو سماح وهي لا تغفر، أو حبيبة وهي كريهة، أو جهاد وهي خذلان، أو فائزة وهي خاسرة، أو منيرة وهي قاتمة، أو سعيدة وهي تعيسة.

وهكذا يمكن للأسماء أن ترمز في حياتنا لهذه المعاني الساخرة، حينما نناقضها بأحوالنا ومواقفنا وطباعنا.

يقولون فيما سبق، أنه قد جعل لكل امرئ من اسمه نصيبا، ولعل من وفق لهذا الجلال سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–، حينما سماه جده ليحمد في الأرض والسماء.

وكذلك سيدنا علي –رضي الله عنه–، حينما سمي عليا لأنه ولد بأستار الكعبة فنال المعالي.

كانت العرب ترجو من تسمية أبنائها بما يطلقون عليهم من منطوقها أن يحوزوا معانيها.

يروى أن أعرابيا جلس يؤاكل أبا الأسود الدؤلي، وكان الرجل يأكل بلقم كبيرة وبنهم، فسأله أبو الأسود: ما اسمك؟

فقال له: لقمان

فقال أبو الأسود: صدق أهلك في تسميتك، فأنت لقمان.

ولعل كاتب هذه السطور، ممن تعرضوا لهذه المحنة، محنة التسمية، فاسمه حاتم، وهو المعنى أو المثل المضروب للعرب في الكرم والجود.

ولا أعرف فهناك مواقف كثيرة أشعر فيها من نفسي بالكرم الذي لا حدود له، وبعضها أتلمس فيها مشاعر الشح، لكنها والحق يقال، ليس شحا من النفس، وإنما تفرضه بعض الظروف.

فأنا واحد من الناس لا أعرف كيف أحتفظ بالمال، والمال من أكثر الأشياء التي لا تطيق عشرتي.

فإذا ما جمعت مالا، سلطني الله على إنفاقه أو تبديده في أي شيء المهم ألا يبقى في قبضتي.

لم يسمني والدي بهذا الاسم طمعا في أن أكون كريما، ولكنه اسم عرض له يومها فرآه جميلا، ولو أنه تأمل معناه في اللغة لأعرض عنه، رغم أنه كان من عشاقها.

لكنني والحمد لله أجد معنى الاسم في ذاتي متمكنا من صفاتي، فما يزورني زائر أو يحل بي ضيف، حتى أفني نفسي فيه.

فإذا ما وجد الزائر غير ذلك، فليعلم أنها ظروف حاصرتني، لأخرج عن طبيعتي.

وقد يكون الاسم يعني شيئا، وقد تخالفه حقيقة صاحبه، لكنه في النهاية يظل اسما يفتخر به صاحبه.

ناهيك عن قوم تحكم فيهم جاهل وأخطأ في مسمياتهم، فخرجت بشكل عجيب، فلا هي تحمل الاسم ولا هي تشير إلى نقيضه.

حينما سألنا أديبتنا القديرة سومية الألفي في حوارنا معها لماذا سميت بسمية وزيدت في اسمك الواو، مع أن المعروف أنها سمية بدون الواو؟

فأخبرت أن موظف الصحة الذي يقيد أسماء المواليد، كان جاهلا لا يعرف الكتابة، فيجعل من الضم واوا، ومن الفتح ألفا، ومن الكسر ياء.

وتسبب في مصائب كثيرة في أسماء العديد من جيلي في قريتنا.. ولعلي أحسن حظا من غيري وأقل جرما في اسمي ومنطوقه من كثيرين وكثيرات شوهت أسماؤهم.

الرجل الذي أتعبنا

أنا من هؤلاء الذين يرتعدون من أن يتهمهم قراؤهم أو خصومهم بالتناقض، وأخشى دومًا أن يصفني أحدهم بهذه الصفة المرذولة، لأنها تعني لي معان كثيرة وثقيلة، فمنها أنني لا رأي لي، وأنني متقلب، وأنني لا أثبت على مبدأ، وأنني متذبذب، وأنني لا أفهم، وأهمها وأخطرها: أنني منافق.

في أحيان كثيرة، أحسد العميد **طه حسين** -رحمه الله-، ولكنني لا أحسده على نبوغ أدبه، وحسن أسلوبه، ورقي بلاغته، وعميق مجادلاته، وجرأة أفكاره.

وإنما أحسده على شيء ينفر منه كل إنسان سوي الفكر والرأي، لكن العميد وبلا حرج كان يرتضي هذا السلوك لنفسه ونجده فيه صفة بارزة من صفاته، فمما كان يميزهذا الرجل، أنه يقع فيما ينهى عنه، ويفعل ما كان يستعيبه، وإذا هاجمك اليوم على منحى أدبيًا أو طريقًا فكريًا، أو خالفك في قول تتبناه ورأيًا تظهره، فإنه سرعان ما يمر الزمن، حتى تجده يقول بعكس ما كان ينكر عليك بالأمس.

وتحار وتحار في نفسية هذا الرجل وشخصه الغريب، ويغالط عقلك بعضه بعضا حينما تُحكمه في مواقفه وتناقضاته، بل تتعب وأنت تبحث عن غرضه من تقلبه، ومما يعييك أكثر، كيف لهذا الرجل

أن يجترئ على صفة التناقض، ويخوض غمارها بكل سهولة وشجاعة، غير عابئ بنقد أو خائف من تعيير، أو متوجس من اتهام، أو مستح من ظنون.

لقد نقد عبقريات العقاد بكل عنف، وكان ذلك بعد موت صاحبها حينما أعلن على الدنيا كلها أنه لم يفهمها.!

كان ذلك حينما التقى أنيس منصور بطه حسين في الحوار التليفزيوني الشهير وقال وقتها: "إنه لم يفهم عبقريات العقاد، ثم سأل أنيسا وقال له: هل تفهم العبقريات؟ فرد أنيس بأنه يفهمها وغيرها من العبقريات، ولكن طه لم يسترح لهذا الرأي، وانزعج الناس يومها من هذا الكلام، واعتبروه تجريحا في العقاد بعد موته، وأن طه لم يكن لبيبا فطنًا بهذا التصريح المثير، وبعضهم ذكر أنه لم يكن يستطيع قول هذا في حياة الكاتب الجبار، وبعض ثالث لم يصدق أن طه لم يفهم العبقريات، وإنما هو نوع من الانتقاص لذكرى الراحل الجسور.

ولكن.. دعك من هذه الحيرة وهذا التقلب في معرفة غرضه ورأيه، لننظر ماذا فعل عامر.!

فمن هو عامر؟.

لما سمع هذا الكلام عامر ابن أخي الأستاذ العقاد، قام بنشر خطابات تؤكد إعجاب طه حسين بعبقريات العقاد، وذكر أحدهم: أنه سمع طه حسين يبدي إعجابه بعبقرية عمر بالذات في بيت العقاد بمصر الجديدة، وسمعه يقول: "إنني عندما قرأت عبقرية عمر، أحسست أنني أقرأ عبقرية العقاد!"

ورغم هذا النشر المغاير لموقف طه حسين إلا أنه أصر على أن العبقريات بها غموض شديد وأنه لم يفهمها، حتى جاءه حفيده الطالب يومًا وقال له: إذا كنت أنت لم تفهم عبقرية العقاد المقررة علينا هذا العام فكيف نفهمها نحن؟!

ومن الغريب أن طه حسين في عام 1960 كتب تقريرًا عن العقاد أثناء ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية قال فيه: "كان للعقاد طريقة انفرد بها وأجاد فيها، وهي أنه يتناول العظيم من جانبه الذي كون عبقريته، وبهذه التراجم استطاع أن يعرض على أبناء هذا الجيل صفحات مشرقة من أمجادنا الخالدة".

وقال: "لقد استطاع أن يلقي على أولئك الأعاظم ضياءً ساطعا بحيث يشعر هذا العصر بقوة عبقريتهم وسلطان أخلاقهم، وبحيث يدرك عظمة الإسلام ورجاله أتم إدراك، فيجد أبناء هذا العصر في مطالعة كتب الأستاذ العقاد قدوة لهم يقتدون بها فيزدادون صلابة في إيمانهم وشدة في قوميتهم"

وأنت لا تعرف حقًا ما الذي يدور برأس العميد، هل يتقلب رأيه مع فصول السنة الأربعة، أم أنه ينافق ويخالف، أم أنه يحب افتعال المعارك، أم أنه يمدح صاحبه يومًا، ثم يرتئي بعد زمن أنه لا يستحق المدح فيقلب العاقبة عليه؟!

لا تعرف بالتحديد مآرب هذا الرجل، الذي شفعنا له غارته على إمام النثر العربي **المنفلوطي** حينما هجاه وسخر منه في أيام مراهقته، نعم كان طه حسين وقتها شابًا مراهقا، لا هم له إلا إحداث جلبة وضجة ليتحدث الناس عنه، وهو الغرض الذي اعترف به فيما بعد لابنة **المنفلوطي** وقال لها معتذرا: كنت أهاجم أباك بحثا عن الشهرة، وقال لبعض الصحفيين بعد أربعين سنة مرت: "كنت شابًا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف.. فأفرطت وتطرفت في النقد.. أما طول اللسان فكان سببه هو عنف مزاجي ولعل هذا السبب ولا سبب غيره"

لقد أصبح طه حسين أديبا يشار إليه بالبنان، وسوف نصاحبه، لتظهر لنا هذه الصفة المحيرة مرة أخرى.!

ومما ذكره **البيومي** أنه حينما ظهرت قصة الشاعر **للمنفلوطي**، كتب الدكتور **منصور فهمي** يمدحها وقال: إن المنفلوطي قد اقتحم سبيلا وعرًا لأن في بلاغة الأصل ما ليس في طاقة معرب أن ينقله، وربما تحمد الجرأة في الصعاب كما حُمدت جرأة **المنفلوطي** في نقل هذا الأثر الرائع، لأنه أدى لنا صورة حية بقلم عربي مبين.

ويبدو أن هذا الإطراء قد أغاظ **طه حسين** ولم يعجبه، فذكر أن المترجم قد شوه ومسخ، وأن **منصور فهمي** يجب ألا يشجع المفسدين والأدعياء، وأنه لا يفهم كيف يمكن أن تتحول المسرحية إلى قصة، وقد عاود الدكتور **منصور فهمي** الكرة، فذكر أنه لا يجد مبررًا للدكتور **طه حسين** حين يذكر

المنفلوطي في الأدعياء، وأن وصف الأديب جدير به، وأن تحويل المسرحية إلى قصة بدعة صالحة لا يستهجنها الذوق السليم!.

ولكن **طه حسين** أصر على أن المسرحية لا تنقلب إلى قصة، وعد ذلك مسخًا وتشويهًا، وعملا يقترفه الأدعياء! وتمر الأيام لنرى الدكتور طه حسين نفسه يختار مسرحيات فرنسية ليلخصها قصصًا على صفحات مجلة الهلال، ثم يعمد إلى جمعها تحت عنوان (**صوت باريس**) و(**لحظات**) ومما يذكر أن مجموعتي الدكتور **طه حسين** لم تكرر طبعاتها، ولم تجد معشار ما وجدته قصص **المنفلوطي** من إقبال!

لقد حرم على **المنفلوطي** عملا يراه تشويهًا ومسخًا وادعاء، ثم يحاول أن يقوم بمثله فلا يبلغ قليلا مما يريد؟

ونحن أمام هذا التناقض المريع حائرون في تحليل أبعاد الموقف وتحليل نفسية صاحب الموقف، أيكون في ذلك اعترافا صريحا منه بأنه قد ظلم **المنفلوطي** حين سلك مسلك التلخيص المفيد! كما يكون في ذلك ما ينبىء عن تعمد القدح دون موجب معقول، لا تدري ولا تفهم ولا تستبين، لتظل حائرا تائها شاردا ضالا، مما يفعله الرجل بنا في مواقفه المتناقضة.

أزمة الإهداء

منذ أيام قامت الدنيا ولم تقعد على الكاتب الأديب أشرف الخمايسي، لأن إحدى الصديقات ذهبت إلى المكتبة، واشترت كتابا للأديب الراحل حمدي أبو جليل، تصفحته فوجدت عجبًا في صفحته الأولى، فالكتاب ممهور بإهداء من المؤلف إلى صديقه الأديب أشرف الخمايسي، إذن ما الذي جاء بهذا الكتاب إلى هذه المكتبة ليباع ويعرض للجمهور، لابد له أن يكون بحوزة الصديق الذي يبدو أنه فرط فيه وأهمل تقدير صاحبه له، فما كان من صديقتنا إلا نشرت صورة الإهداء وكتبت عليها هذا التعليق: "في ناس ما تستاهلش شوية الحبر اللي انكتب بيهم التوقيع فتفرط في إهداء جميل زي دا.. يا ألف خسارة ع المثقفين"

وهنا تفجر الموقف، وتحول المنشور إلى حرب كبيرة بين المؤيدين والمعارضين، ووجده خصوم الخمايسي سبيلا كبيرا للنيل منه والتنفيس عن حقدهم عليه، وانتظر الجميع أن يرد الخمايسي ليشرح الأمر، ويوضح حقيقة اللبس، ولكن رده جاء عنيفًا ناريًا على صفحته، محاط بكثير من الألفاظ الشديدة القاسية، لمن فجروا هذه الأزمة، وأظهروه بمظهر لا يليق، وكان يمكن له بكل سهولة أن يحبط هذا الكيد، لولا أنه سارع إلى تقليم أظفار المنتقدين.

علمت أن الموضوع لم يبدأ بعد، وأنه في سبيله للتضخيم والتهويل، وإثارة الغبار على الكاتب الكبير، خاصة من أولئك المتربصين به من حشرات العلمانيين والملحدين، ممن يكتبون في الصحف ويمتلكون منابر التوجيه والإعلام، ويشرفون على الملاحق الثقافية في كبرى الجرائد، ليكون هذا المسلك طريقة قذرة لتصفية الحساب معه، وعقابه على توجهه القيمي والديني، وانتصاره للهوية الإسلامية في تصريحاته وكتاباته المعلنة.

لقد حاولت أن أجد أي مبرر للكاتب الخمايسي وعذرًا أحتج به عنه، لكن منشوره العنيف قطع علي أي تبرير له، إلا أنه حسب دفاعه.. حريته الشخصية وله أن يفعل ما يشاء، يمكن جدا للخمايسي أن يكون له عذره المقبول، لكن الكلمات المهولة التي وجه بها، جعلته يمتطي سيف القلم ويجرح في المعرضين به، بصورة لا تليق، والحق هنا أحق أن يتبع، فالخطأ ابتداء وقع من الصديقة التي نشرت المنشور وأهانت الرجل بكلمات لا تليق.

وفي ظلال هذا المشهد، يمكن لك أن تلمس طبيعة المشهد الثقافي والمسرح الأدبي وكيف يمتلئ بالأحقاد والمكائد التي لا تليق بأناس طرقوا أبواب الثقافة، وفهموا معناها، وتقربوا بها إلى التحضر والرقي، اذهب واقرأ التعليقات لترى ما يندى له الجبين وكأن الرجل قد أجرم في حق الوحي والقرآن.

أتذكر بقوة ما قرأته يوما عن **فولتير**، حينما أهدَى صديقًا من أصدقائه نسخة من كتاب له، وكتب عليه ذلك الإهداء، وبعد زمن وبينما هو يتجول في سوق الكتب القديمة، رأى نسخة من كتابه هذا معروضة لدى الباعة، فأمسك بها وتصفحها، فإذا بها نفس النسخة التي أهداها إلى صديقه هذا وعليها إهداءه بخط يديه، حزن **فولتير** حزنًا شديدًا، ولكنه لم يفعل كما فعل أعداء الخمايسي، حينما

وجدوها فرصة للتشنيع عليه، فقد كان فولتير مصلحا وفيلسوفا و حكيما ومهذبا، تلك الحكمة التي ظهرت في رد فعله، حينما اشترى هذا الكتاب، وذهب إلى صديقه وأهداه له مرة أخرى، ليُعلمه درسا قويا في الوفاء، واحترام مشاعر الأصدقاء.

الكاتب إبراهيم عيسى سجلت الأحداث أنه واحد من هؤلاء المستهترين بكتب الأصدقاء المهداة إليه، ونفس الصديقة قد أصابني العجب منها حينما علمت أنها كذلك قد وقع في يديها كتاب لصديق من أصدقاء عيسى قد أهداه إليه وفرط فيه صاحبنا إهمالا واستقلالا.

كنت منذ عامين قد حضرت مجلسا ثقافيا احتفاء بكتاب ألفه أحد الكتاب الكبار، وكان يشاركنا صديق له وهو كاتب مرموق، وقد صحب معه في الأمسية عددًا محدودا من كتب ثلاثة كان قد ألفها، وكان أغلب الحضور من المحبين للاستماع، لكنهم لم يكن فيهم كاتب واحد، تغريه هذه الكتب عند قراءتها ليستخلص منها الكثير من الأفكار.

ربما يحبون القراءة، لكنني حينما قارنتهم بنفسي، رأيت أنني أولى منهم بهذه الهدايا، وحينما بدأ الرجل في توزيع هداياه، صرت في حالة من عدم الاتزان، ولا أعلم وقتها ماذا وكيف سيكون حالي لو أنني لم أصب نسخا من هذه الهدايا، ولكن الله سلم ونلتها، فاسترحت وهدأت، وانتفعت بها انتفاعا طيبا.

بدأت مرحلة التأليف والطباعة، منذ أن كنت طالبًا في الكلية، وقد زار المكتبة يوما أحد أساتذتي، ورأى فيها بعض كتبي، فسر لذلك سرورا عظيما، سرور الأستاذ المخلص لتلميذه النجيب، ولما زرته في بيته أخرج لي نسخة باقية من كتاب ألفه وقال لي: أنت أحق بها من غيرك.

لم يكن فرحي بالهدية إلا لأنها نابعة من تقدير كبير من أستاذي لمسته وشعرته، فقد تغيرت نظرته إلى كثيرا بهذه الخطوة.

عرفت الإهداء أول ما عرفته منذ صغري، وعلى ضفاف مكتبة والدي

-رحمه الله-، فقد كان فيها كتب ودواوين مهداة إليه من أصحابها الكتاب والشعراء مكتوبة بالقلم الحبر القديم، لكني لاحظت من بينها ديوانا لشاعر يسمى العوضي الوكيد، وقد أهدى ديوانه،

لرجل اسمه نجيب لا أذكر بقية الاسم، ولكن نجيبا هذا فعل شيئا غريبا، إذ كتب تحت إهداء العوضي: وأنا بدوري أهديه إلى صديقي الأديب **(إبراهيم سلامة)** محبة واعتزازا.

فهمت من يومها أنه ليس عيبا أن تهدى إليك الهدية، فتهديها لغيرك.. خاصة إذا رأيت وعلمت أن هذا "الغير" من يمكن له الاستفادة منها أكثر منك.

وعلى جانب آخر، يقف أناس متحسسون من هذا الفعل مستنكرون لحدوثه، لأنهم يقدسون الوفاء والمشاعر إلى حد غزير، ويرون في التفريط في الهدية، تفريطًا في مشاعر من أهداها إليك بحب واعتزاز.

ولعل هنا درسًا دقيقًا أحب التنويه إليه خاصة في وعي كتابنا الصغار، فالكاتب المبتدئ حينما يؤلف كتابًا يشعر بسعادة فائقة، ويتخيل له أن الدنيا كلها تحتفي بتفوقه وتهيم بمنجزه، ويتمنى لو أن الناس قاطبة تحدثت بمؤلفه وأشادوا به في غدوهم ورواحهم، بل يتوق أن يهديه للجميع حتى يصفقوا له على ما أنجز، وهنا تدفعه حماسته أن يهدي كتابه في كثير من الأحيان إلى بعض من لا يستحقه أو يقدره حق قدره، دون التمييز بين طبيعة المهدى إليهم، هل هم ممن يحترمون الثقافة والمعرفة، ويثمنونها ويعشقون سبلها، أم أنهم لا يلقون لها بالا ويرونها عملا مملا تافها لا فائدة منه ولا منفعة؟!

ولو أنه أهداه للصنف الثاني فلا يلومن إلا نفسه، إن حدث بكتابه مالا يرضيه، لأنه لم ينظر إلى التربة الجيدة التي يضع فيها بذرتها اللائقة بها، ومهما يكن من الأشخاص من يعز عليك، فتأكد أنه يفصل بين معزته وتقديره لك، وبين كتابك الذي لا يعني له أي شيء، بل قد يراه عبئا حملته إياه.

ارفع يدك عن طه

أعترف أننا نصدم كثيرا من الناس وخاصة بعض المثقفين ونحن نتحدث عن الدكتور **طه حسين** ومخلفاته الفكرية، وصداماته الدينية، ومخالفاته الإسلامية.

بل يتحول هذا الخلاف والجدال، أحيانا إلى خصومة عنيفة وعداء ظاهر، قد يرميك صاحبها يوما بالجهل والرجعية والتشدد أحيانا.

والحق أن مرجع هذا الخلاف يعود إلى سبب جوهري، ونقطة لم يلتفت إليها كثير من الناظرين وهي، أن أغلب المدافعين عن **طه حسين**، من عشاق الثقافة الأدبية، قرؤوا له وعاينوا أدبه وعشقوا أبحاثه، وبانت لهم روعته الأدبية، وضلاعته اللغوية، فصار في أعينهم عظيما لأنه ساد وبرع في ميدانهم الذي عشقوه من أجله.

ومن ثم إذا رؤوا أحدا ينتقده، فإنهم لا يستوعبون ولا يفهمون، بل لا يخطر في بالهم أن هذا العملاق يمكن أن يخالف الفكر الديني في شيء، أو يعرض لثوابت دينه بالافتراء يوما، وعليه تقوم أمامك معارضة شديدة، تتعجب منها وتضرب كفا على كف، حينما يكون الدليل واضحا والإدانة بينة زاهية، ومن أقوال صاحبها، ثم يعترضون عليك.

لقد قال لي أحدهم يوما: ارفع يدك عن **طه حسين**، فلما تبينت حاله، علمت أنه خريج دار العلوم، وأن العصبية وحدها للغة والأدب هي من جعلته يقول هذا.

وقال غيره لي يوما: مهما فعلت وفعل أمثالك، فلن تستطيعوا أن تهدموا **طه حسين**، وسيظل قيمة وقامة عبر الزمان والأيام.. والحق أنني لم تخالجني فكرة هدم الرجل ولم يكن في نيتي هذا، فقط أردت أن أنتصر للحق وحده، وأظهر الخطأ حتى لا تعمده العقول وتؤمن به.

وهنا يتكشف لنا خيبة من يدافعون عن **طه حسين**، والتي تتمثل في ضعفهم الثقافي الفكري وخاصة الديني، مع تضلعهم وتفوقهم الأدبي، لقد جهلوا أن للرجل وجهتين، إحداهما أدبية وأخرى فكرية، وكل منهما له رجاله ورونقه ووجهته، فإذا تحدثت عن **طه حسين** المفكر، فلا تقحم الأدب في الموضوع، وإذا تحدثت عن **طه** الأديب، فلا تقحم الفكر في الموضوع، يجب الفصل التام بين الأمرين، حتى نعي ونفهم ما يدار.

كثير من محبي أدب **طه حسين**، مولعون بالأدب وحده، ومقصرون في الثقافة الإسلامية، ومن هنا يحدث اللبس والتصادم.

ولو أنهم درسوا وقرؤوا وتعمقوا، لفهموا وأدركوا هذا الفارق.

نختلف معه فكريا لكننا نقدر عبقريته الأدبية، ونتوافق معه أدبيا، لكننا لا نناصره في كثير من أفكاره.

إن بعض الناس ممن بهرهم أدبه، يأخذون كتاباته الدينية وكأنها وحي بعد كتاب الله، وأحدهم لا يستطيع أن يستوعب، أن يقوم هذا الأديب بغرض في كتاباته، وهو في نظره ذلك الأديب الكبير، الذي كتب في السيرة النبوية، وكتب عن الصحابة والرسول وقيام الإسلام، فما أبرعه وما أثمر أدبه وأجمله.

أما ما فيه من مخالفات وأكاذيب وترهات، فهي لا تعنيه لأنه لا يطلب فكرا بقدر ما يطلب أدبا، وللأسف حينما يحاول أن يجنح للفكر يوما، نرى هذه الأكاذيب والشبهات قد تلبست به من حيث لا يدري وكأنها العلم الأصيل والحق الساطع المضئ.

فتراه يرددها عن ثبات ويقين.

وهي ذات المشكلة التي كنت أجدها من والدي -رحمه الله- ومن فرط إعجابه **بطه حسين** والعقاد، لم يكن يستطيع أن يدرك، أن مثل **طه حسين** يمكن أن يكتب ما يشين أو يخالف الدين، فهو في نظره أديب الأدباء، ويوما ما كنت أقرأ له من كتاب فقه السيرة للبوطي -رحمه الله-، وفي مقدمة الكتاب، كان البوطي ينتقد اللفتة الإنسانية التي سار عليها بعض الكتاب في حديثهم عن الرسول كالعقاد في كتابه عبقرية محمد، وإن كان لم يشر إليه ويقول البوطي: "إن محمدا -صلى الله عليه وسلم- نبي وهذه النبوة جعلته يرتقي ويتميز ويختلف عن البشر، وحينما نقومه، نقومه بالنبوة لا بالإنسانية.

فما كان من والدي إلا أن أشاح بيده وقال: "ايه جاب الكلام الفارغ ده للعقاد.

وهكذا سقطت الحجج والدلائل أمام الاسم في وعيه، سقط العلم ولم يجد مكانا يأوي إليه في مداركه، لأن هواه الأدبي، رفع العقاد للصدارة التي لا تقبل النقد.

ولعلي أقول الآن: ما أكثر ما يجني الأدب على ثقافتنا الدينية، حينما يكون ذريعة المدافعين عن أدباء أخطأوا في حق دينهم.

ولو أنهم أعطوا للدين نصف ما أعطوا للأدب لتكشفت لهم دروب الحق والحقيقة.

احذروا أبناءكم الجهلة

نصيحة مني أقدمها لك: إذا كنت عالما أو أديبا أو فقيها، فاعمل جاهدا أن تنشر تراثك وكتبك بيديك قبل أن تعاجلك المنية، ولتعلم أن من خلفتهم من أبناء لا يلوون على تراثك في شيء، وأنهم في كثير من الحالات من أشد أعداء هذا التراث وخصومه وأسرع الناس فتكا به وإهمالا له سواء كان مكتبة خلفتها أو تراثا فكريا سطرته بيديك ويحتاج إلى من يوالي نشره بعد موتك.

وإني لأضحك من حرص البعض على تأليف رواية أو عمل كتاب وأول أهدافه أن يقيم معنى تربويا في روع أبنائه ليمنحهم الفخر والسعادة حينما يرون أن أباهم ألف كتابا، يخيل إليه أنه يعلم أبناءه أنه عظيم، أو أنهم آمنوا أنه عظيم، وحينما يرحل عن الدنيا يكون أول ما يمزقونه هو هيكل هذه العظمة التي صدعهم بها طوال حياته.

الأبناء الروحيون أو التلاميذ الذين يرتبط بهم الكاتب أو المفكر أو العالم أثبتوا في كثير من المواقف أنهم أشد برا بالعالم والأديب من أبنائه الحقيقيين، حين يعملون على نشر تراثه وإحيائه من جديد.

علمت من صديق أن ابن عالم من العلماء الكبار أوقف إخراج تفسير للقرآن ألفه والده، لأنه يعتقد أن هذا التفسير سيدر الملايين إن طبع، بينما لا يتحرك إلى طبعه وإخراجه وينتظر التاجر الذي يعرض عليه أكبر سعر حتى يعطيه الكتاب ويغنى من ورائه، وهذا الجاهل سيظل على هذه الحال الغبية ولن يأتيه أحد وسوف تنتهي حياته ويموت ويضيع من بعده تراث والده الذي قدمه خدمة للإسلام.

منذ فترة أوشكت أن أنشر كتابا لأحد العلماء على الإنترنت مجانا حتى يستفيد القراء، فأوشكت إحدى بناته أن تقاضيني وسارعت لتعرف الموقف القانوني لولا لطف الله بي، وقد أخبرني الصديق معالي المستشار بهاء المري أن هذه السيدة لو رفعت عليك قضية كان من الممكن أن تقضي عليك بغرامة تصل إلى 800.000 جنيه، كل هذا لأن المطبعة التي تطبع كتب والدها ورقيا تقتسم معها أجر المبيعات.

قرأت في سيرة المؤرخ الراحل محمد عبدالله عنان قوله: "واذا كنت آسف على شيء في حياتي العائلية ، فهوأنني لم أرزق من يمكن من أولادى أن يخلفني في حياتي الأدبية ، ويرعى تراثي التاريخي

العريض، و يستمرفي نشر كتبى التاريخية والأدبية المختلفة، لكي تنتفع بها الأجيال اللاحقة، ولكنني تركت هذا التراث وديعة بين يدى الله –سبحانه– يرعاها ويحفظها وهو خير الحافظين"

ولأجل القيمة العظيمة لكتبه –رحمه الله– قيض الله لمن بعده أن يعرف قيمتها ويوالي العناية بها، لكن هناك من العلماء من ضاع كثير من تراثهم، وكان أول الأسباب أنهم لم يخلفوا وراءهم من يعرف قيمة ما يكتبون ويسطرون.

وهناك من لا يعبأون بعناية أبنائهم لأنهم تركوا الإلحاد في كتبهم حارسا لبقائها، فإلى اليوم مازالت تطبع كتبا لبعض الأدباء تتفجر كفرا وفجورا وقد فني أبناؤهم، فلم يتركوا وصية لمن بعدهم أن يعتني بتراثهم، لأنهم وجدوا الشيطان يرعاها وينميها، وكان لهم خير وريث وخير معين.

ومن ثم كانت هذه النصيحة لك أن تكون أول المعتنين بتراثك وكتبك وسطورك، حتى لا يأتي وراءك ولد جاهل فيرمي بتراثك في القمامة، أو يحبسه عن الناس رجاء الإتجار به.. وإذا كنت في هذا المقام أبرز الصورة السلبية لأبناء العلماء، فإنني أشيد بأبناء بعض العلماء الذين يحرصون على نشر تراث آبائهم وإحياء ذكراهم ومد أثرهم وتجديد كتبهم باريين بهم وخدمة للعلم والفكر والأدب.

لا مجاملة

النقد الأدبي يمكن له فعلا أن يَحط من قيمة كتاب أو يرفع من مكانته، وهذا النقد قد يرتكز أحيانا على دقائق علمية أو فنية، يمكن أن تكون مسار زلة في الكتاب أو الرواية، لكنها أبدا في أغلب الأحيان لا تهدم أو تمحو ما في الكتاب من إبداع وجهد يشهد له القاصي والداني.

وعلى مؤلف الكتاب أن يدرك دوما أن النقد مجرد رؤى واجتهادات ولفتات ترجع إلى الناقد وذائقته.. ولابد لنفسه أن تتحمل قدرا من التقبل والاستيعاب، دون شعور بالحزن والإحباط والضياع.

بل يدرك دوما أنه لا يوجد كتاب كامل إلا القرآن الكريم، وأن صفة البشر تنطبق على كتبه.

وقد يتعرض الناقد أحيانا لكتاب ألفه صديقه أو شخص يحبه ويقدره ويحترمه، وبينهما مودة وقبول، لكن الأمانة العلمية في ظروفها ومقتضياتها، لا تعترف بهذا الحب، وتتنكر له دوما، فالحب في

القلوب والمهج، أما العلم والنقد، فله شأن آخر، لا صلة له به، لأنه يعني الأمانة، والأمانة مقدسة، فوق كل حب وكل تقدير، ولعله المنهج النبوي في السلوك بين الأشخاص، انصر أخاك ظالما او مظلوما.

منذ بضعة أسابيع، حضرت نقدا لكتاب الدكتور **على زين العابدين** "حديث الأموات" وكان للناقد الدكتورالجليل **أحمد فرحات** آراء قد تبدو صادمة أو محزنة، يمكن أن يتخيلها السطحيون أنها أهدرت قيمة الكتاب، أو أنها أطاحت بمكانته وجهد صاحبه.

لكن الأمور أبدا لا تسير على هذه الرؤى الهينة، وقد تعجب عندما تعلم أن الدكتور **فرحات** قد قرظ نفس هذا الكتاب الذي انتقده، بمقدمة في طبعته الورقية، وقال فيه كلاما حسنا، وأشاد مقدرا جهد الكاتب ومنهجه وصنيعه.

لكن النقد شيء آخر وصنعة مغايره.

ومن قبل هذه الحادثة حضرت لناقد قدير حول رواية أدبية تناول بعض أفكار الرواية وأحوال أبطالها ووجهات أصحابها، كان النقد يبدو شديدا عنيفا، وربما أحزن أو ضايق مؤلف الرواية، لكن الناقد لم يكن يعني بحديثه أن يهدم الرواية وقيمتها الأدبية، ولكنها صنعة الأديب مرة ثانية، التي تبحث عن الكمال، وتستلفتها مواطن قد لا تستقيم مع ذائقة الناقد وأفكاره.

وأنا عن نفسي أبتعد كثيرا عن النقد وأصحابه فلا أطيقه ولا أضع نفسي في محله، لأن طاقتي وروحي لا تتقبله، وعلى من يقرأ لي أن يبحث عما يعجبه ويستهويه، وما يلمسه من مضار وهنات فليغفرها لي.

ولو أنني وُضعت في موضع الأديب الذي يتلقى النقد السلبي، فلربما كان أول عمل أفعله حال إيابي إلى البيت، أن أمزق كتابي، أو أمتنع عن الكتابة بعدها قاطبة.

لكن الله –تعالى– قد منحني فراسة أستطيع التمييز بها بين النقد الهادف، والنقد الحاقد.

وأعود على ما بدأت، فأنا حينما أنقدك وأقسو عليك، فإن ذلك لا يعني أني أبغضك و أكرهك، أو أرجو تحطيمك وأبغي هلاكك.

وإنما كما قلنا.. تعلو الحقيقة والأمانة العلمية فوق كل اعتبار. فحينما ألف الأستاذ خالد محمد خالد كتابه (من هنا نبدأ) كان رد الشيخ الغزالي عليه عنيفا في كتابه (من هنا نعلم)، وقد تألم منه خالد أشد الإيلام كما ذكر في مذكراته.

وتحرك الدكتور شيخنا العلامة البيومي يتصل بالشيخ الغزالي ويقول له: الأستاذ خالد عزيز علينا، وهو منا ونحن منه، فلابد أن ترفق به، فابتسم الغزالي وقال له: "وهو ما تقول يارجب، ولكن المسألة قد خرجت عن نطاق الأستاذ خالد، حيث تلقفها خصوم الإسلام مصخمين، فنحن نريهم وجه الحق، والحق أحق أن يتبع".

وهكذا لم يعد للحب أي اعتبار، أمام حقائق العلم والفكر، وهو المنهج الذي وضعه من قبل الإمام ابن القيم، في شرحه لكلام الإمام الهَرَوي في مدارك السالكين (شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم -صلى الله عليه وسلم- مأخوذ مِنْ قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن مَحَامِلِهِ. ثُمَّ نُبين مَا فِيهِ)

المري وجراحي القديمة

تحدثت الدنيا قاطبة عن كلمة المستشار بهاء الدين المري في قضية مقتل الطالبة نيرة أشرف، والتي ظهرت في ثوب أدبي حوى قمة البلاغة والرقي البياني أسلوبا وإلقاء.

ولست أبالغ إن قلت: إن المستشار الأديب استطاع بكلماته وفي أكثر من قضية، أن ينحرف بانشغال الناس بالجريمة كقضية رأي عام، إلى الانشغال بروعة الأديب التي امتلأت بالعظة والعبرة والخطاب الملهب لنفوس المجرمين.

المري اليوم وحيد في ميدانه الأدبي، بل يعد الفارس اللوزعي في ساحة الأدب القضائي، والذي افتقدناه منذ زمن كبير وعقود طويلة في مؤلفات وكيل النيابة الأديب الكبير توفيق الحكيم.

ولعلي قد أتيح لي مؤخرا التعرف على المري بدقة، من هو وكيف حاله وما أمره وما عمقه الأدبي وتكوينه الثقافي واللغوي، حينما شاركنا في كتابنا الأخير **رحلة التكوين في حياة المبدعين** وكان الفضل للكاتبة الصديقة والأخت القريبة غادة صلاح الدين فرأيت رحلة ثرية ومليئة بشاب ناهض

عشق الأدب رغم اختلاف عمله فيما بعد عن صنعته، لكنه كان ناجحًا ومتفوقا حينما استطاع أن يستثمر هذه المهنة في خدمة الأدب، أو بصورة أخرى خدمة المهنة بحلية الأدب، مما ظهر تفرده وتميزه، وكان واجهة مشرفة لمصر في نمطها القضائي.

يقولون: إن المري يخيف المحامين، حينما يترافعون أمامه، فيصحح لهم أخطاءهم اللغوية، وهذا شيء مبهر يداوي جرحي القديم، حينما كنت أعمل في المملكة العربية السعودية، وكانت وقتها محاكمة الرئيس الأسبق حسني مبارك، وكان القاضي وقتها في قمة الانحدار اللغوي، مما سبب لنا أزمة محرجة، وفضيحة مدوية لمصر والمصريين، لقد كان القاضي يخطئ في أبسط الكلمات التعبيرية والبناء اللغوي، وكان فريسة للكتاب السعوديين الذين نهشوا لحمنا وشمتوا فينا، في أكثر من مقال وأكثر من صحيفة، من باب السخرية والاستهزاء، كنت أتابعها بألم وفي كمد وضيق وحزن، ونسي كثير من هؤلاء الكتاب أنها حالة فردية، وأن من علمهم اللغة في مدارسهم معلمون مصريون.

ليظل بهاء الدين المري واجهة مشرفة للقضاء المصري والأدب القضائي.

المري الذي تفخر الدنيا به اليوم، ويتحاكى بأمره القاصي والداني، لابد لنا أن نذكر العلمانيين واليساريين بنقطة رهيبة وكبيرة ودقيقة في حياته، فهذا النموذج المشرف سليل أسرة أزهرية أبا عن جد، ليؤول بنا إلى نتيجة مهمة وهي أن هذا هو النمط الذي ينتجه ويخرجه الأزهر لو كانوا يفقهون وينصفون، لكن حقدهم اليوم الذي يهدر على الأزهر هو في حقيقته حقد على الإسلام نفسه، حينما يرددون بأفواههم الكريهة: أن الأزهر مصنع الإرهاب ومناهجه منبت الانحراف والتطرف.. لكن نشأة القاضي الأديب الذي نتباهى به، جاءت ضربة قاصمة لأمثال هؤلاء الرعاع، حينما نبتت عقليته ومواهبه في بيت أزهري.

أعطى بهاء الدين المري درسا مهما لأدباء الجيل، وكأنه يلومهم أو يعاتبهم، حينما أعلن أن تلك المكتبة التي امتلكها بيتهم لوالده وجده الأزهريين، كانت تعج بكتب التراث، وهي التي جذبته بقوة وفتن بها وصارت هواه، ومن هنا كان أثر التراث في تكوين ذائقة بهاء الدين المري الأدبية، ليخرج بهذه الصورة الوضاءة للأديب النابغة، وهي رحلة التكوين الثقافي التي تصفع أدباء لا يعرفون اليوم عن تراثهم شيئا، ولم يقرؤوا فيه حرفا، وكانت كل عنايتهم بكتب الغربيين ورواياتهم.

قدم لنا معالي المستشار دروسا تربوية قوية من خلال حكايته عن رحلته المعرفية، حينما رأت والدته شغفه بالقراءة، فاهتمت به وشجعته ودفعته دفعا لمعارض الكتاب وشراء الكتب، فهل يمكن لكل أم ترى في ولدها بصيصا من هذه الآمال لتشجعه وتحفزه عله يكون اليوم مثل هذه القامة القضائية كما فعلت والدة المري؟!.

الأدب وحده هو من دعانا اليوم أن نتحدث عن المري، وليس القضاء، وإن كان القضاء له الفضل في إبراز هذه الموهبة الأدبية، لكن الأدب له قصب السبق في تسجيل هذه التجربة الأدبية القضائية.

كان القضاء وعالم الجريمة في الباب الذي استطاع أديبنا أن يسلك فيه مسالكه، فبحكم وظيفته في النيابة والتحقيق، عرضت عليه عشرات القضايا والجرائم والجنايات، ودفعه غرامه الأدبي أن يسجلها ويروي قصصها، لكنه لم يكن مجرد راو وراصد للأحداث، وإنما كانت له تأملاته التي دعته أن يطعم أدبياته بالتأمل الكبير في أسرار النفس وأحوال البشر وظروف الحياة التي جعلته متقلبا في مشاعره بين التأمل والتألم والوعي والتدبر والضحك أحيانا والسخرية، بل دعته هذه الأدوات أن يظهر بالهيئة المطلوبة للأديب الحاذف في فنه.

ولكونه اليوم مستشارا كبيرا، إلا أن أدبه لم يفرض نفسه بقوه عن طريق الموهبة القابعة، فلولا المعارف ولولا المتأملون لقدرات الموهوبين لما استطعنا التعرف على مثل هذا الأديب المرموق.. وهي الفرصة التي يتوق إليها كثير من المبدعين وتنقصهم المعرفة ليعرف الناس أدبهم الحبيس.

القيم في حياة القاضي الأديب شيء واضح في كلماته ومؤلفاته، فلازلنا إلى اليوم نذكر حينما قال لقاتل صهره حرقا بالمنصورة: «فكرت بالقتل وأنت تقرأ القرآن». القرآن إذن منبع الهداية والاستقامة، فهو ليس أديبا على هذا النمط المنحل المنحرف المعادي للقيم والثوابت الدينية، التي حاول بعضهم وفي حقبة من الزمن، ومن بقاياهم المتعفنة إلى اليوم، أن يوهمونا أن التمرد على القيم والثوابت أساس الفكر والإبداع، وكلما كنت ملحدا أو منكرا كلما كنت متنورا ومفكرا عظيما، ثم ما لبس أن دفعه هواه القيمي، أن يقدم لهم صفعة أخرى حينما كتب كتابه التاريخي: «القضاء في الإسلام».

وأنا لا أعرف إلى اليوم وقد تركت المملكة العربية السعودية منذ سنتين، هل علم كتاب جرائدها بأمر القاضي الأديب؟ وهل كتبوا عنه شيئا مما أبهر الناس من سمو اللغة والتعبير؟ أم أنهم كالذباب لا يحوم إلا حول القذى، أو كالمغرض الذي لا يولع إلا بالتقاط الشبهات والنقائص؟!

تحية لمعالي المستشار وتشرفت بصداقتكم الغالية.

ولا أخفيك سرًا فأنا أكتب الآن وأخشى أن تصحح لي خطأ لغويًا أرجو أن تعذرني فيه.

الذين حرقوا المعرفة

نأسى ونحزن ونتندر بما ضاع من الكتب العربية والتراث الإسلامي على يد التتار الذين رموا بالمكتبة العربية في نهر دجلة حتى تغير لونه.

وتظل هذه الحادثة أوحدية في تاريخ المسلمين وهم يعزون أنفسهم بمصابهم الثقافي والحضاري الكبير.

والحق أن تاريخ المسلمين كان فيه أبشع من صنيع المغول بمكتبة بغداد.. فكلنا يعرف ما بلغته الحضارة والوجود الإسلامي في الأندلس من الرقي والتقدم والازدهار المعرفي.. ولا أعرف لماذا تغطي جريمة التتار على جريمة النصارى الأسبان مع أنها كانت أبشع وأقبح وأشد نكاية فقدا وخسرانًا للبشرية والوجود الإنساني كله.

يحلو للبعض أن يسميهم بالأندلسيين، لكنني أصر على تسميتهم بالنصارى الأسبان، للتذكر دائما بأن من فعل هذه الجرائم التي يندى لها جبين البشرية والإنسانية نصارى غير مسلمين.

منذ أيام كنت أقرأ في كتاب **في ميزان الإسلام** للعلامة الراحل محمد رجب البيومي، وقد ذكر في معرض دفاعة عن نسبة حريق الإسكندرية لسيدنا عمر بن الخطاب فقال: "لماذا لم يبك هؤلاء المغرضون على التراث الإنساني الرائع الذي أحرقه الأسبان حين استولوا على الأندلس، وقد سجل التاريخ أن عشرات المكاتب قد أحرقت عمدًا في غرناطة ومدريد وقرطبة وأشبيلية، وكانت هذه الكتب خيرة ما وجد في أوربا دون استثناء! وماذا تكون مكتبة الإسكندرية -على نفاستها الزمنية- إذا قيست بما وجد في الأندلس من مكتبات!"

نعم فبعد سقوط الأندلس أمرت السلطات الإسبانية الجديدة -عبر التهديد والوعيد ومحاكم التفتيش- السكان المسلمين بتسليم ما لديهم من الكتب والمخطوطات، وأن عملية جمع الكتب استمرت سبع سنوات، وبعد ذلك أُحرقت الكتب والمخطوطات التي تم جمعها في غرناطة في منطقة باب الرملة، وقَدر كثير من الدارسين الغربيين ما تمّ إحراقه ذلك اليوم بمليون مخطوطة. ذكر ذلك المؤرخ الدكتور عبد الرحمن الحجي

ولكننا الآن وبعد كلام الحجي والبيومي نسوق اعترافات الغربيين أنفسهم ممن جسدوا ووصفوا هول المهزلة الحضارية.

الباحث والكاتب الغربي ريتشارد أوفندن -مدير مكتبات البودليان الشهيرة في أكسفورد والمسؤول الـ25 الذي يشغل المنصب التنفيذي الأول في مكتبة جامعة أكسفورد منذ عام 1987م- كان له مؤلف ثمين سجل فيه هذه الجرائم البشعة للنصارى الإسبان ضد العلم والمعرفة وسمى هذا الكتاب (إحراق الكتب: تاريخ الهجوم على المعرفة) -الصادر حديثا بنسخته العربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون- حيث يروي فيه أنه كان هناك أكثر من سبعين مكتبة في إسبانيا الإسلامية، ولم يعرف العالم أمة أحرقت كتب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا.

وأبدت المستعربة الإسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو تحسرها على فقدان تلك المعرفة، وتقول إن ذلك "أثّر في ذاكرتنا وتجربتنا الجماعية تأثيرَ المأساة والفقدان".

وتضيف "تمّ إحراق كتب عربية في غرناطة من قِبل الضباط في الجيش المنتصر على المملكة الأندلسية في 1492م، وما يزيد على خطورة العملية ومأساويتها أنها تمت بعد توقيع اتفاقية وعدت باحترام حقوق الغرناطيين الدينية والثقافية".

وتابعت "نعرف أنَّ كثير من الكتب النفيسة النادرة العربية الأندلسية أُرسلت إلى الخارج وبيعت، كما بقي بعضها في المكتبات المؤسساتية الرسمية، كمستشفى غرناطة الملكي، أو في مكتبات خاصة لأشخاص ذوي مكانة وقوة وثقافة نهضوية".

وبينت **كارمن برافو** في -تصريحها للجزيرة نت- أنه "مع مرور الزمن تبنّى حكام إسبانيا نمطا من الثقافة السلطوية ازداد استبدادا ومبالغة في الوحدوية، إلى حد أنهم منعوا استعمال اللغة العربية، كما

منعوا امتلاك الكتب أو المخطوطات المكتوبة بها.. وبقيت الثقافة الإسبانية على هذه الحالة إلى بداية القرن الـ18".

وبدوره، يؤكد المستعرب **فيراندو فروتوس** -للجزيرة نت- أنه من المعروف أن الكاردينال سيسنيروس الإسباني -وهو أمين سر الملكة إيزابيلا- أمر في عام 1500م بإحراق ما يزيد على 4 آلاف مخطوطة عربية ذات طبيعة دينية وتاريخية وشعرية محفوظة في غرناطة، ولم يستثن منها سوى ما يتعلق بعلوم الطب.

ويتابع "رغم كل ما حدث في تلك الحقبة من الزمان -من الاعتداء على المسلمين وعلى لغتهم وعلى ثقافتهم- فإن الثقافة الإسبانية اقترضت من الثقافة العربية عناصر وجوانب مهمة".

وأريد أن أسجل من هنا أن الغرب الذي يتهمنا اليوم بأننا أعداء الحضارة، إذا نظر إلى تاريخه وتجنيه على مصادر المعرفة لعرف وأدرك أنه العدو الحقيقي للحضارة الزاهية، وأن هذه الأمة التي يتجنى على تاريخها بالتشويه، كان تاريخها لامعا مدهشا قدم الكثير والكثير للإنسانية، ولكنهم قابلوه بالجرائم التي يتناسونها اليوم.

الكتاب الذي فقدته

ولأنني قارئ، ولأنني من عشاق الكتب، فقد لا تتعجب حينما تجد نفسي في قمة أسفها وانزعاجها وحزنها من ضياع كتاب أثير في أعماقها.

نعم كان هناك كتاب قد ارتبطت به كثيرًا منذ يفاعتي، كنت كثير النظر فيه، وكان يبهرني ما فيه من علم، وما يضمه من لمسات ودورس مستفادة لا يقع عليها إلا رجل عاشق فعلا للقرآن، لقد كان هذا الكتاب هو **قصص القرآن** للدكتور محمد بكر إسماعيل، كنت وقتها أخطب الجمع في المساجد، وأعد دروس العلم، وكان هذا الكتاب يذخر بلفتات نادرة من التأمل القوي في معاني قصص القرآن الكريم.

ولما سافرت للعمل في الخارج، ظل هذا الكتاب في مكتبتي محفوظًا كأحد أهم الكتب المحظية لدي، وفي إحدى الإجازات، لا أعرف ما الذي دفعني إلى هذا؟ فإن نفسي تعتريها بعض اللحظات الخائبة التي لا تعرف كيف تفسرها هل هي من قبيل الكرم أم الحنان؟ أم ماذا لا أعرف؟!

دفعتني لحظة من هذه اللحظات، أن أعطي بعض الكتب والمجلدات من مكتبتي لابن أخي آملا أن يقرأ وهو طالب في المرحلة الإعدادية، وأوصيته أن يقرأ فيها، وأن يحافظ عليها، وسعدت أكثر حينما وجدت لديه استعدادا وترحيبا وحماسًا.. وبعد مرور عدد من السنوات سألته أين الكتب التي أعطيتك إياها؟ هل قرأت شيئا منها؟ وكنت أتوقع أن يحكي لي ويروي، ويناقشني وينافسني، فإذا به يقول لي: لقد ضاعت ولا أعرف مكانها، كانت مجلدات فخمة قيمة لها مكانة عندي، لكنني رجعت بالعتب كله على نفسي.

لقد ظننته مثلي حينما كنت في مثل سنه مولعًا بالكتب، وحريصًا على جمعها والاهتمام بقراءتها.. كنا شيئًا مختلفًا، عن أجيال هذا الزمان، الذين يرون الكتب مهزلة وعبئًا ثقيلا يسارعون إلى التخلص منه، ولا شك أنني كلما تذكرت جريمة ابن أخي، وطريقة رده الهادئ البارد وهو يقول: لقد ضاعت مني ولا أدري أين هي؟، يشتعل في أعماقي كمد وغيظ لا حدود له، فأنا لم أسأله على إبرة في كوم من القش كما يقولون، ولكنها كتب ضخمة ومجلدات معتبرة، وليس لي إلا الصبرأ وكبت ما بي من حنق. كما أنه قضاء الله ولعل الله يعوضني عما فقدت.

شيء واحد فقط يذكرني بهذا الألم، وذلك حينما أقرأ القرآن الكريم، وتمر بي بعض قصصه، لأتذكر كتاب الدكتور محمد إسماعيل، الذي كان واحدا من هذه الكتب الضائعة، لتبدأ دورة الحزن والأسف على فقده، وهو ما ساقني منذ أيام أن أبحث عنه في جوجل، حتى وجدته، وكانت فرحتي عظيمة لا تعادلها فرحة، وبدأت أقرأ فيه، وأستعيد ما كان لي معه من أيام وإلهام.

لقد كانت لي مع صاحب هذا الكتاب ذكريات لا تغيب، كان الدكتور محمد بكر إسماعيل أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، كفيف البصر، وكان نجمه صاعدا في إذاعة القرآن الكريم، وصوته فيها يتردد صباح مساء، ومنذ هذه الأيام وأنا أتعجب وأقول: من كان يصدق أن ينتهي صوت الدكتور إسماعيل، ويذهب مع ما ذهب من أيام الدنيا، ولا يوجد الآن حتى من أبناء الأزهر نفسه من يعرفه أو يذكره، وقد كان ملء السمع والبصر، مما يقوم به من نشاط وجهد؟!

لم أقنع فقط بكتاب **"قصص الأنبياء"**، وإنما سارعت لأقتني كتابه المسمى **"الفقه الواضح"** بمجلداته الثلاثة، وكتابا آخر في شرح وصايا الرسول

-صلى الله عليه وسلم- وغيرها من الكتب، وقد سمعته مرة وهو يقارن بين كتابه وكتاب فقه السنة، ويعلي من كتابه على فقه السنة، والحق أن هذا الكتاب كان له الفضل علي في إتقان كثير من مسائل الفقه وأحكامه، لسهولة عرضه وشيق بيانه.

لقد كان الدكتور-رحمه الله- أول عالم أزهري أقبل يده، حينما زارنا محاضرًا في بعض مخيمات جامعة الأزهر بمدينة نصر، وقد أبهرتني رؤيته وهو الشيخ المعمم، حينما التف الطلاب حوله يسألونه ويجيبهم في كثير من المسائل.

رحل الدكتور ولم يعد له صوت مسموع، ولكن كتبه هي الخالدة والباقية التي يذهب ثوابها له -رحمه الله-.. لقد رحل ووافته المنية وهو ساجد في الصلاة، فما أجمله من ختام، وما أروعها من نهاية.

الردود المظلومة

كثير من الكتب التي تحمل الشبهات والاتهام والافتراء، تُشتهر وتذاع وتطبع، ويتم توزيعها ونشرها والتوصية بها، وكأنها الحق الذي لا جدال فيه، ولا قول بعده.

مع أن هذه الكتب قد شمر لها كثير من العلماء والمفكرين، فردوا عليها ونحروا رؤاها، وجعلوها هباء منثورا، بل جعلوا منها أشبه بكومة من الأوراق، تحمل قمامة لا قيمة لها.

ومع هذه الردود العلمية النافذة، التي أفقدت هذه الكتب والأفكار مكانتها، وعرت أصحابها وفضحت منطقهم وعقولهم، يصر قوم آخرون على إعلاء هذه الكتب الزائفة، وترقية أصحابها بعبارات الفكر الفخمة، وأوصاف العبقرية.

ولا شك أنهم فقدوا الصدق والشرف في تعاملهم مع كتب الردود، ويهولهم ما صنعت بكتب الشبهات التي هللوا لها، ويستخدمون أمامها أساليب الرعاع والهمج، ليشوشوا على وجودها.

انظر لكتاب "الشعر الجاهلي" **لطه حسين**، لقد تصدى كثير من الأعلام لما فيه من زيف وأفكار ورؤى قبيحة ضالة، وكذلك كتاب "الإسلام وأصول الحكم المنسوب" **لعلي عبد الرازق**، الذي تصدى له كثير من علماء الأزهر، ومع هذا لا يلتفت إلى هذه الردود المفحمة، وتظل بعض مؤسسات

الدولة إلى هذه اللحظة، تطبع وتشيد بهذه الكتب التي جعلتها ردود العلماء في مقام الأضحوكة المدوية.

ولا تتحمل المؤسسات وحدها نكر الترويج لهذه الافتراءات، بل تتحمله الأمم الجاهلة، التي جعل الجهل منها مرتعا للزيوف وأصحاب الخرافات والأضاليل.

بل نعيب مجتمع المثقفين الذين يللهون ويكبرون لكتب الشبهات، ويسعى جميعهم لاقتنائها، ويتغاضون ويتغافلون عن كتب الردود التي أسقطتها وهزمتها.. ذلك لأن هذه العقول التي تنصب أصحابها في ميادين الثقافة، عقول جاحدة لاتعرف معنى الأمانة العلمية، وموازين الشرف والإنصاف.

بل ترى أحدهم وهو يكابر منتفخا، فيصف كتب الشبهات بأنها الحق الذي بقي، بينما تلاشت كل كتب الخصوم، وتناثرت أدراج الرياح، ليبقى صاحب الشبهة وحده في القمة والسمو.

ولكن ذلك يا سيدي لا لأن صاحب الشبهة على الحق، ولكن لأن وراءه جهات مأجورة، وخصوما مغرضين، يعملون ليل نهار للحفاظ على خرافاته ونشر افترائه.

اليوم ننظر إلى بعض مؤلفات **يوسف زيدان ونصر أبو زيد**، والتي فضحتها وقزمت أصحابها ردود المفكر العملاق **محمد عمارة**، مع هذا يصر بعضهم أن يردد هراء هذه الدعاوى مقتنعا بها مكبرا لأصحابها، مع أنه لو أنصف وقرأ الردود، فسوف يضرب كفا على كف من هذه العقول المتجنية جهلا وسفها.

يحدث هذا حتى على مستوى البيئة الإسلامية، فقد ألف الدكتور عبد الصبور شاهين كتابه "أبي آدم" الذي حمل فكرة غريبة وجديدة، ورد عليه الدكتور **عبد العظيم المطعني** في كتاب قويم، ولكن نظرا للشهرة الطاغية التي يمتلكها الدكتور شاهين، لم يعبأ أحد أو يذكر مؤلف الدكتور المطعني.

حتى دور النشر التي لا قيم لها ولا رسالة غير المال والربح، تسارع لطباعة الكتاب الذي يحمل الشبهة، ولا تطبع الرد عليه.

وحينما هللت الأوساط الثقافية من اليسار والعلمانية لكتاب "من هنا نبدأ" لخالد محمد خالد، لم نسمع منهم أحدًا يذكر رد **الشيخ الغزالي** عليه في كتابه النابغة "من هنا نعلم".

وظلوا يهللون حتى جاءتهم الضربة من خالد نفسه، حينما تبرأ من كتابه وأفكاره.

إن المجتمع الجاهل من سماته أنه يغفل عن الحق، ويكبر الغرائب، يروج للأغاليط، ولا يكلف نفسه عناء البحث في الردود التي كشفت الحقيقة ونصرت الصواب.

بدون معلم

يعرف العلم اللدني في أدبيات الصوفية، بأنه العلم الذي يهبه الله للعبد بلا شيخ أو معلم، ويستدلون عليه بقوله -تعالى-: "وعلمناه من لدنا علما".

ولعل هناك صورة أخرى في حياة بعض الأدباء، كانت شبيهة بهذا القذف الإلهي الذي يتحدث عنه الصوفية، فلم يكن لبعض الأدباء شيخ أو معلم يلهمهم العلم غير أنفسهم، وإذا كان أهل الصوفية يجتهدون في العبادة التي تؤهلهم لرتبة العلم اللدني، فقد كان هؤلاء الأدباء يجتهدون في القراءة حتى نالوا في العلم منالا رفيعًا.

عرفت ثلاثة من العمالقة، كان علمهم شاهقًا، وأدبهم فريدًا، وآثارهم غائرة، وكان الواحد منهم بما قدم أمة وحده في دنيا الفكر والأدب، بل كان الثلاثة من الجسارة بما لم يدانيهم أحد، ولا يقاس بحجمهم ند أو منافس.

نعم يخيل إليك من تاريخ هؤلاء العمالقة وذكرياتهم، ومما تركوه تراث حافل جبار، ومن درجات حازت قصب السبق والارتقاء بلا معلم فيه ولا أستاذ، أن حياتهم هذه أسطورة غريبة، وسيرة تستدعي منا كثيرا من الوقوف والتأمل والدراسة، لكنك مهما تدرس وتتأمل، سيكون هناك سر مجهول غير مكشوف، لن تدركه وسوف تحار فيه كثيرًا، كيف بلغ هؤلاء ما بلغوا دون معلم، وكيف صاروا على هذا التضخم العظيم بلا مرشد، هل يمكن أن يحدث ذلك؟ وكيف؟

لكن واحدا من هؤلاء العمالقة، يجيبنا عن هذا السر العجيب، وراء هذا العلم العصامي المذهل، إنه **الرافعي** الذي اكتفى من التعليم بأوائله فقد نال الكفاءة وثقف نفسه بنفسه ثم هو يقول لنا في بعض مقالاته: " تناولت الأدبيات بنفسي ولم يرشدني في ذلك أستاذ، ولا علمني إنسان، ومن آتاه الله من فضله استغنى عن المخلوقين".

إنه إذن فضل الله ومنحه ونعمته وخصوصيته لبعض عباده، فقد حفظ الرافعي القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، ونقل إلى المدارس وبقي فيها إلى الثامنة عشرة، وخرج منها وفي يديه الكفاءة، وأخذ ينمي قواه العقلية والمعرفية بالقراءة والبحث والنظر في الكتب، حتى كان من شأنه ما كان.

وكذلك كان **محمد فريد وجدي** آية من آيات العصامية، التي شيدته علميا وفكريا وأدبيا، إذ اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة دون توجيه من أحد، فقد أتقن الفرنسية والعربية في سن مبكر، وأخذ يقرأ ويقرأ، حتى أصبح بما حصله من المعارف الواسعة عبر القراءة والنظر في التراث، علما من أعلام الشرق والإسلام وفي حياته نرى أن المؤسسة الدينية الرسمية ـالأزهرـ تطلب منه وترجوه أن يرأس ويدير تحرير مجلتها الناطقة باسمها "الأزهر" ثمانية عشر عاما على التوالي، حتى ارتفع بمستواها العلمي.

أما العملاق **العقاد**، فلم يتجاوز المرحلة "الابتدائية" من التعليم، لكنه ثقّف نفسه حتى صار من كبار المفكرين والأدباء.

وُلد **العقاد** في مدينة أسوان، ولم يتعد في دراسته المرحلة الابتدائية، لعدم توافر المدارس من مراحل تعليمية أعلى في أسوان آنذاك، كما أن أسرته الفقيرة لم تتمكن من إرساله إلى القاهرة للدراسة بها كما كان يفعل الأعيان وقتها، ولكنه كان عصامي الفكر مستقل الرأي منذ صباه، فاعتمد على ذكائه الحاد وصبره على التعلم والمعرفة، حتى أصبح صاحب ثقافة موسوعية لا تُضاهى، حيث ثقّف نفسه بنفسه في مجال الأدب العربي، كما أتقن اللغة الإنجليزية من مخالطته للسياح المتوافدين على الأقصر وأسوان، ما مكنه من القراءة والاطلاع على الثقافات الأجنبية من مصادرها الأصلية.

ما ينطق عن الهوى

كتبت في مقال سالف وقلت: فلان لا ينطق عن الهوى.. في حكم بعينه، وليس في كل ما ينطق به لسانه.. كان الوصف محددا في مسألة بعينها وذاتها.

فماذا في ذلك من مغالطات التعبير؟ وقد رأيت معناها في التفسير: أي لا ينطق عن هواه ورأيه واجتهاده.. استعرت فقط هذا المقطع من الآية الكريمة، وليس في ذلك أي تجن على مقام القرآن والنبوة.

إن كل إنسان ينطق بالقرآن والسنة، ويدعو إلى الهدى والرشاد، لا ينطق عن هوى، وهو في هذا شبيه نبيه الكريم إلا أنه لا يوحى إليه.

والكاتب والأديب في أقصى بلاغته، أن يستعير جمله وكلماته من القرآن الكريم، لكن بعض الأصدقاء الأحبة، ربط هذا المقطع بما يليه من الآية المباركة التي تقول: إن هو إلا وحي يوحى.. وهذا ما لم أقله أبدا.

أرجوكم أنا لم أقل عنه: إن هو إلا وحي يوحى، فأخرجوا الشطر الثاني من خيالكم، واجعلوا بينه وبين الشطر الأول حجابا سميكا.!

فحينما يصدق أحدهم في دعواه، ويأتي من يدافع عنه فيقول: إنه لا ينطق عن هوى، أي لا يتبع مزاجه وأهواءه والافتراء والكذب والباطل والرأي، فماذا في ذلك من خطأ القول وجرم اللفظ؟.

وهل رسولنا الكريم وحده هو الذي لا ينطق عن الهوى؟

إن كل مصلح رباني داعية، يدخل في هذا الإطار، بل هو في فعله يتحلى بأخلاق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصفاته، إلا أنه لا يوحى إليه.

وهل إذا وصمنا شخصا بالرحيم والعظيم والكبير، هل معنى ذلك أننا نتجنى على صفات الألوهية.

حينما أقول: تلك إن قسمة ضيزى، فهل يخرج من يقول: إن هذا الوصف لا ينطبق إلا على هذه القسمة التي وصمها الله سبحانه بالجور؟!

ويحضرني هنا قول ابن الرومي:

لئن أخطأتُ في مدحِـ ** ك ما أخطأتَ في منعي

لقد أنزلتُ حاجاتي ** بوادٍ غير ذي زرع

وماذا لو قال أحدهم لزواره: ادخلوا قريتي إن شاء الله آمنين.. فهل هنا حرف القرآن الكريم، وتجنى على قول العلي القدير، إني لأراه بلغ الذرى في تعايشه مع القرآن الكريم.

وحتى وإن كان أحدهم في بعض المواقف ينطق أحيانا عن هوى كذب، وفي بعضها يصدق ولا يتبع هواه.. فهل نفزع لو قلنا عنه في الأولى: إنه ينطق عن هواه؟

لكن ماذا لو قلنا له في الثانية: إنه صادق لا ينطق عن الهوى.

إنه الأدب القرآني وتأثيره على مفردات الأديب، وليس هناك مجال لاغتصاب صفات النبوة.

وقف الخطيب الأحمق يوما على المنبر يمدح الملك لاستقباله وتكريمه لطه حسين، فقال الأحمق، لقد لقيه الأعمى فما عبس ولا تولى.

والفرق هائل فهذا ليس اقتباسا بل قول وجرم يحوم حول الكفر والفسق.

إن تفسير الآية الكريمة يخصص نطق النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن كما أشار المفسرون، وإلا ففي حياته العامة كانت هناك بعض القرارات التي صححها الله -تعالى- ورفض فيها اجتهاد الرسول الكريم

-صلى الله عليه وسلم-.. فهل نعقل ونتفهم؟.

حتى وإن كان من وصفناه بذلك قد أخطأ في اجتهاد فقهي، وهو من المخطئين، فالعبرة ليست في خطئه، وإنما العبرة أن هذا الخطأ لم يكن من عقله وهواه، وإنما من استدلال وحكم وفهم بعينه، لكنه في النهاية لم ينطق عن هوى، وإنما علم.

قال الفقهاء:

"يجوز الاستشهاد بآية من القرآن، أو بجزء منها في كلام المتكلم، وهذا يسمى في علوم اللغة والأدب بـ(**الاقتباس**).

كما لا حرج في نثر الكلام على وزن بعض الآيات إذا كان لمقاصد شرعية، مثل الاتعاظ والتدبر، ويكون على وجه التعظيم، أو لتحسين الكلام، وليس على وجه المناظرة والمماثلة.

وأما إن كان في مجال الأساليب المخالفة للعقيدة مثل: الهزل والغزل، أو وقع على سبيل يوحي بالتقليل من شأن القرآن الكريم؛ فهو محرم والله أعلم".

منذ فترة كتبت مقالا شددت فيه النكير على من وصفوا الإحياء بقولهم:

"كاد الإحياء أن يكون قرآنا"

تبنى كثيرون موقفي الآن في استشهادي بألفاظ هذه الآية، لكنني رفضت رفضا قاطعا أن تكون ثمة جملة توحي أن الإحياء موازيا للقرآن، والمقام هنا يختلف كثيرا.. فرق كبير أن تقتبس ألفاظ القرآن وجملة لا تنافي العقيدة في مسارك الأدبي والتعبيري، وبين تعريض العقيدة ومقام النبوة للتمثيل والتشبيه.

ربما أكون مخطئا لكني لا أصر على الخطأ إن ظهرت الحجة واستبان الإقناع.. وأنتظر مناقشاتكم، خاصة أهل اللغة والأدب.

وداعًا زمن الحرمان

يكاد المرء يشعر بالحرمان الكئيب، حينما يسمع عن اسم كتاب ولا يعثر عليه، ويظل هذا الضيق متقدًا في الصدر إلى أن ينال الباحث غايته، وقد كان هذا الحرمان في الزمن القديم أشد مرارة قبل ظهور الإنترنت، ولكن مع توافر قنوات البحث اليوم، صار الحصول على كثير مما نتمناه حقيقة مأمولة، لكننا نقرر أن الحرمان قد تشتعل مرارته، لو شحت علينا قنوات الإنترنت بالحصول على ما نريد من الكتب.. وهذا يعني أن الأمل في الحصول عليه صار ضعيفا معدوما.

أذكر في صباي أنني سمعت عن كتاب (قذائف الحق) للشيخ الغزالي، وذكر لي ابن عمي أن هذا الكتاب في فترة من الفترات المظلمة على مصر، لو أنه ضبط عند شخص ما، فإنه كان كفيلا بدخوله السجن، واتهامه بالقراءة للشيخ الغزالي، وعشت زمنا طويلا أرجو امتلاك هذا الكتاب والحصول عليه، حتى جاءنا هذا الوقت بتقنياته التي مكنتني من الكتاب وقراءته والسعادة به.

ولا أخفيكم أن قلبي يمتلئ حسدًا من النوع الطيب، على أولئك الذين عثروا على كتاب نادر وجوده، لا أملكه ولا أعرف الطريق لامتلاكه، وكم أتمنى لو تكرموا علينا ونشروه في الإنترنت وجعلوه متاحًا مباحًا للجميع.

قرأت منذ أيام لأستاذنا الإعلامي الكبير أستاذ تهامي منتصر، وكيف أنه عثر على كتاب (الغابة) للصحفي الراحل وجيه أبو ذكري، بعد أن عاش في شارع الصحافة ربع قرن تقريبًا.

لقد أسرعت الخطى إلى جوجل للبحث عن الكتاب ولكن للأسف دون نتيجة، خاصة وأن الاستاذ تهامي تناول الحديث عن الكتاب والعثور عليه بطريقة شوقتني إليه، والرجاء في العثور عليه حيث قال:

"لم أكد أستقر في دار أخبار اليوم حتي عرفت قدماي طريق المكتبة العامرة بالدور الثاني ..وبينما أقلب عثرت علي كتاب لم يشتهر كثيرا وقد تعمد الصحفيون تجاهله تماما، رأي الأستاذ أبو ذكري سكان أخبار اليوم

-تحديدا- يشبهون كثيرا عوالم الغابة وثمة وجه شبه كبير بين نفوس وسلوك بعض الصحفيين والحيوانات المناظرة في نفس الطباع والسلوك بالغابة ورصد نفوس الزملاء بدقة، تعلق ذهني بالكتاب لمصداقيته واقترابه من الواقع ..ولكني اكتشفت بعده أنه الواقع ذاته وأن الغابة لم تحترق ومازالت النفوس والطباع هي هي بل أكثر شراسة"

ولا أخفيك أنك في كثير من الأحيان يمكن أن تتوق للعثور على كتاب عرفته، وتظل تسأل عنه الأصدقاء والأصحاب، وتنتظر تلك اللحظة التي يجود بها عليك الزمن لامتلاكه، وبعد أن يتحقق أملك، تكتشف ضعف الكتاب وانحدار مستواه، مما يجعلك تندم على شغف وهيام تعلق به قلبك.

حدث هذا معي في كتاب (قصة قلم) لعايدة الشريف عن حياة أبي فهر محمود شاكر، الذي لا يليق أن يكون كتابا يتناول شخصية هذا العملاق.

ولعل قصة كتاب "همع الهوامع" من أروع القصص التي عرفتها في هذا المضمار، حينما كان صديقي طالبا في في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، حيث طلب منهم الدكتور بعمل بحث لغوي لا يعتمد على أي مرجع إلا على كتاب اسمه (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع) للإمام السيوطي، وظل صديقي يجوب المكتبات ويسأل العلماء والباحثين واللغوين عنه دون أن يجد له أثرًا، فسافر من الشرقية لدار الكتب بالقاهرة، آملا أن يجده، فخاب مسعاه، ذهب إلى دور الثقافة فلم يجد شيئا، فوقع في نفسه أن الدكتور إنما قال لهم اسما وهميًا حتى يتعبهم ويضنيهم، ويمنحهم درجة الرسوب، وفي يوم من الأيام، وبينما صديقي قد استيقظ من نومه في الصباح حتى طلبت منه والدته، أن يذهب ليشتري طعام الإفطار، وذهب صديقي واشترى خبزا وخضرة، حتى استقر عند محل عم سيد

ليشتري منه الفول والفلافل، وبينما هو واقف أمامه، يعاني خليطا بين اليقظة والنعاس، كان عم سيد قد وضع كرتونة من الورق، يلف منها قراطيس الفلافل، وفجأة يمسك عم سيد بورقة ليجعل منها قرطاسا، فإذا بهذه الورقة تكشف عن كتاب أصفر قديم، جاء في جملة الورق والمجلات التي تباع لأصحاب هذه المحلات، ومكتوب على هذا الكتاب "همع الهوامع" نظر صاحبنا وأحس أنه في حلم كبير، وأخذ يفرك عينيه ليتأكد أنه يقظان، ولم يجد نفسه إلا وهو يصرخ بأعلى صوته: استنى ياعم سيد هات الكتاب ده، ففزع عم سيد وقال له: فيه إيه يا أستاذ، خده وخلصني، كان صديقي مدهوشا من الحدث ولا يكاد يصدق نفسه، أو يستوعب ما حدث، واستطاع في النهاية عمل البحث، ولم يصدق أستاذ المادة نفسه، لأنه هو أيضا كان يعييه الحصول على "همع الهوامع"؛ لكنه أعطاه الدرجة النهائية، بعد أن علم هذه القصة الغريبة في الحصول على الكتاب.

كان هذا في الزمن القديم، وقبل ظهور الإنترنت بهذا التوسع، ولكننا اليوم ما أن تكتب على جوجل "همع الهوامع" حتى يظهر لك كتاب الإمام السيوطي في أكثر من موقع بأبهى الطبعات وأحدث التحقيقات.

رحم الله زمان الحرمان.

الثقافة أم السياسة؟

لا أخفيكم أنني أشعر في كثير من الأحيان وأنا أمسك بقلمي لأعبر عن فهمي ونظري ورأيي، أنني زعيم وقائد ومنظر يوجه الأمة والعقول والرأي العام لما يراه وينهجه.

وهو شعور منحه القلم لكثير ممن أحبوه وتعلقوا به.

نعم.. فللقلم سلطان عظيم، وتأثير كبير، أقوى من تأثير الساسة والزعماء..ألا تراهم يحرقون كتب المفكرين ويصادرون أقلامهم، لأنهم يدركون أن الثقافة أقوى وأقدر، وأبلغ نفاذا وتأثيرا في الجماهير.!

لقد عبر **فولتير** عن هذا الاحساس قديما حينما قال: «وما عليَّ إذا لم يكن لي صولجان؟ أليس لي قلم؟»

"وقد حق **لفولتير** أن يفاخر بقلمه كما يفاخر الملك بصولجانه؛ لأنه إذا كان للملوك ملك **فلفولتير** ملكوت، وإذا كان لكل ملك رعية مؤلفة من جميع الطبقات **فلفولتير** رعيةٌ راقية، مؤلَّفة من رجال

الذهن في جميع أنحاء العالم، وإذا كانت الملوك تتفاضل بالأثر النافع الذي يتركه حكمها في رعاياها فأي ملك استطاع أن يؤثر في أذهان الناس بمقدار ما أثر وما سيؤثر فيها **فولتير**؟!

"أجل، إن هناك ملوكية لا تتبوأ العرش المُذَهَّب، ولا تعقد على الرأس الإكليل المرصَّع، تلك الملوكية تكون بسعة الثقافة التي يشرف صاحبها على العالم، ماضيه ومستقبله، يرسم له مثله العليا ويوجِّه خُطاه نحوها، فقادة العالم الحقيقيون هم فلاسفتُه وعلماؤه الذين يرسلون صوتهم إلينا عبر القرون، فنسمع لهم، ونأتمر بأمرهم."هكذا علق سلامة موسى على قولة **فولتير**.

ومن هنا نشأت المفاضلة بين المثقف والسياسي، وعقدت المقارنة بين السياسة والثقافة.

ولهذا قلت وأقول دوما: الثقافة أقوى من السياسة، والمثقفين لا يقلون مجدا عن السياسيين.

هذا ما ذكرته يوما لصديق حدثني بائسا حزينا لأنه لم ينل حظه من موقع حزبي كان يرجوه.

وهذه الحقيقة التي نطقتُ بها ليست إفلاسا أو حيلة العاجز، أو محاولة للهروب أمام حظ تعس، أبدا أبدا.. لأنك لو نظرت في عجالة سريعة لكثير من السياسيين الذين انتهي بهم المطاف للعزل والاقصاء عن مناصبهم التي كانوا يتمتعون بها، فولجوا عالم الثقافة وخاضوا تجربة التأليف، لعلمت ذلك، لقد كانوا من قبل يدوي اسمهم في عالم السياسة، وبعد موتهم، لا يتذكر الناس من أمرهم إلا كتبهم، التي خلدت ذكراهم بأقوى مما تذكره السياسة.

انظر **لهيكل باشا**، هل يذكر أحد من الناس موقعه الحزبي أو الوزاري؟

إن ذلك في عالم المجهول، ولكن الناس لا تذكره إلى الآن إلا ب"حياة محمد" و"في منزل الوحي" و"الصديق أبو بكر"، وغيرها من آثاره الأدبية، ولولا هذه المؤلفات لتوارى **هيكل باشا** في عالم النسيان.

الأستاذ **العقاد** نفسه، كان سياسيا كبيرا، بل تساوى رأيه بآراء الزعماء وكانت مقالاته توجه الأحزاب، وتسقط الحكومات، وتعادي القصر والإنجليز.

ولكنه هجر السياسة وتوجه للتأليف، فماذا أوجد مجد **العقاد**؟ السياسة أم الثقافة.

إن الفكر بلا شك هو صانع مجده ومن جعله عملاقا.

أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، انتهى به المطاف بكاتب إسلامي بعدما كان اسمه يجلجل الدنيا.. فلم يفقد سلطانه وانتقل من سلطان إلى سلطان أبقى وأدوم.

يذكر مرة أن **الملك فاروق** قد أنعم برئاسة الوزارة لأحدهم، وكان الجميع يتوقع أن المرشح لها هو الدكتور **هيكل** لكنها لم تصبه، وشعر فاروق أن الاختيار قد أحزن هيكل، فأراد أن يواسيه ويسري عنه فقال له: لا تحزن ياباشا فلعل الوزارة تأتيك قريبا.

وهنا رد **هيكل** بما أدهش فاروق وعزز مكانة الثقافة ورفعها فوق عوالم السياسة فقال: يا جلالة الملك إنني حينما أجلس خلف مكتبي لأكتب بقلمي، فإن مناصب الدنيا كلها لا قيمة لها في عيني.

ولعله أراد حتى أن يستقل بهذا القول وظيفة الملك نفسه كملك.

والسياسيون الأذكياء هم من يدقون أبواب الثقافة لعلمهم أنها أدوم من السياسة وأعظم منها مكانة، وأقدر منها على ري أسمائهم لتبقى ملء السمع والبصر مشعة وضيئة براقة.. وقد رأينا المشير **أبو غزالة** يؤلف و**السادات** يؤلف **وأمين هويدي** يؤلف، وغيرهم كثيرون ممن كتبوا مذكراتهم وشهاداتهم كالفريق **الشاذلي**، والمشير **الجمسي**.

الثقافة للسياسي منجاة من الاكتئاب والموت، لأن أمثال هؤلاء تعودوا على سحر الشهرة وتعظيم الناس لهم، والإشارة إليهم بالبنان، وحينما يفقدون كل هذه الامتيازات الفخرية، يبدأ الشعور بالوحشة يداهمهم، وإهمال الناس يحاصرهم، وشبح الاكتئاب يفترسهم، وإذا لم يكن لأحدهم ثقافة يمكن لها أن تبقي على هذه المباهي، فإنه حتما سيكون ضحية للإهمال الذي يغتاله.

وحينما أنعم الملك على **طه حسين** بالباشوية، وجاء أحباؤه لتهنئته، قالوا له في محضر زوجته، بأيهما نناديك، الدكتور طه أم طه باشا؟

وهنا تدخلت زوجته وصرحت بأنها تفضل طه باشا.. وهكذا تتخلى المرأة العجوز عن المركز العلمي الذي أوصل طه للمركز السياسي، والذي بقي منه بعد موته، ولا يذكره الناس إلا بالدكتور طه..أما طه باشا فلا يعلمها أحد.

لقد سال لعابها وراء المنصب، وكانت على العكس تماما من زوجة الحكيم، تلك المرأة التي كانت ترى المثقف أكبر من السياسي.

عندما ذهب الحكيم، إلى احتفال تم تنظيمه ليتسلم القلادة، قالت له زوجته: احذر أن تحني رأسك أمام عبد الناصر، وأنت تتسلم القلادة، كررتها أمامه أكثر من مرة فسألها الحكيم: وكيف لا أنحني برأسي أمامه، وهو رئيس الجمهورية، فقالت له في ثقة: أنت في عيوني أعظم من الرئيس، أنت أهم رجل في الدنيا، ولا تنس نصيحتي لك عندما ينادون على اسمك.

بل جلست أمام التليفزيون تنتظر اللحظة التاريخية، اقترب الحكيم، من عبد الناصر، في خطوات ثابتة ووقف أمامه كالصقر، لم تنخفض رأسه، وصافح الرئيس، وقامته مرتفعة ثم تسلم القلادة، ومازالت قامته مشدودة حتى عاد إلى مقعده وسط تصفيق الحاضرين.

وقالت زوجة الحكيم: "تابعته في التليفزيون ولاحظت أنه لم ينحن برأسه أمام الرئيس، وسعدت بذلك أكثر مما سعدت بالوسام".

يا أرض انشقي وابلعيني

زار الدكتور **شوقي** ضيف أستاذه العميد **طه حسين**، يوما ما ليقرأ عليه بعض الفصول في رسالته للماجستير، فسأله الدكتور **طه** عن رأيه في المحاضرة التي ألقاها في الجامعة الأمريكية؟ فقال التلميذ: كانت محاضرة طيبة، فقال **طه** متعجبًا: طيبة فقط؟ فقال التلميذ: كل ما تلقيه من محاضرات رائع، فاستغرق **طه حسين** في الضحك طويلا واضعا إحدى يديه على الأخرى، ثم قال له: ما رأيك في أنني ظللت أعد هذه المحاضرة في نحو شهر، أقرأ لها كتبا مختلفة حتى استوعبت موضوعها، وألقيت فيه المحاضرة التي سمعتها.

خجل التلميذ **شوقي** ضيف من أستاذه لأنه لم يكن يتوقع أو يطرأ على باله أن يُعنى هذا الأديب الكبير بالتحضير والإعداد لمحاضرته كل هذه العناية، وتعلم الدكتور **شوقي** هذا الدرس جيدًا حين قال: "كان ذلك درسا رائعا تعلمت منه أنه لا يوجد عمل أدبي محاضرة أو غير محاضرة جدير بالتقدير مهما صغر حجمه دون أن يكلف صاحبه مؤونة مجهدة ومشقة متعبة، حتى **طه حسين** صاحب البيان الساحر الذي كان يخلب به مستمعيه، يتحمل جهدا مضنيا لا في بحوثه الطويلة وكتبه فحسب، بل أيضا في محاضراته"

وأقول أنا: "إن ذلك من ذكاء **طه**، لأنه يحافظ على اسمه ومكانته التي نالها، فليس الأمر بمهارة الحديث وحده، وما يرتكن عليه من بيان وإلقاء، وإنما ابتداء بالعلم العميق الذي يستند إلى اطلاع وتحضير وإعداد.

لقد ضقت كثيرًا ببعض المحبين الذين إذا ما رأوني في محفل من المحافل أو ندوة من الندوات، وخلت بعض الفرص للحديث، إذا بهم يدعونني لأعتلي المنصة متحدثا، دون حساب أو ترتيب أو تحضير، أو إعداد نفسي لمثل هذا الموقف، مما أجد نفسي معه في حرج شديد، وموقف لا أحسد عليه.

أذكر أنني دعيت مرة للحديث في محفل كنت مدعوًا فيه للاستماع فقط، ولما سمعت المذياع يهتف باسمي، وقع قلبي في قدمي كما يقولون، وقلت في نفسي: (يا أرض انشقي وابلعيني) ماذا أقول وكيف أتكلم بل كيف أقف وأنظر إلى الناس وأنا لم أعد نفسي للأمر؟!

وخرجت للحديث و والله لا أدري ماذا قلت، لكنني أذكر أنني أتيت بكلمة من الشرق وكلمة من الغرب في وقت قصير مر علي وكأنه عمر طويل من الزمن.

إن إشكالية كثير من العقول والأفهام تتصور أنهم حينما يرونني أخطب وأرتدي المنصات الأدبية والفكرية، وأنني أكتب المقالات وأؤلف الكتب، أنني قد وصلت للدرجة التي أستغني فيها عن الإعداد والتحضير، وهذا خطأ فاحش، فأي عالم وأي متحدث وأي مفكر أو أديب أو ناقد، لابد له من التحضير مهما علا كعبه في العلم والدرس، لابد من التحضير حتى يستطيع أن يقدم ما يليق باسمه ومكانته.

أما المفاجآت المباغتة باعتلاء المنصات فهي عندي أبشع المواقف، وأسوأ المفاجآت، وبعضهم يتخيل بدعوتي للمنصة بصورة مباغتة للحديث، أنه هنا يكرمني، والحق أنه يضرني ويحرجني.

أذكر مرة أنني سمعت الأستاذ الدكتور **محمود عمارة** يتحدث أمامي عن هذه المشكلة التي تقابله، أنه لابد له من التحضير للموقف والندوة والخطبة، وأن بعض الناس يستدعونه فجأة للخطاب فيشق ذلك عليه، يقول هذا وهو أحد أعلام الدعوة في عصرنا الحديث، ويؤكد على ضرورة التحضير وأهميته، فليس المرء عالمًا بكل شيء، وليس في جوفه معين كل العلوم، ولا هو كالراديو الذي ما إن ضغطت زره حتى ينطق صوته، في أي وقت تريد وأي مناسبة تشاء.

وحينما كنت أرتاد الصالونات الأدبية في الفترة الماضية، لمست شيئا خطيرا جدا، وهو أن بعض النقاد الكبار لا يقرؤون العمل، ويرون قراءته مضيعة للوقت، وأنهم منشغلون بما هو أهم، وأذكر أنني كنت يومًا مدعوًا للمداخلة، وكان أحد النقاد الكبار يسبقنا في الحديث، فقلت: أستمع لأرى كيف يتناول العمل وهل سيقف على ما وقفت عليه أم لا؟

استمعت إلى الناقد، فلم أجد شيئا يقوله، وخيل إلى أنه قرأ المقدمة، وعرف موضوع الكتاب، ونظر إلى الفهرس فقط، وإذا به ينشئ محاضرة خطابية بأسلوب بليغ أخاذ حول الموضوع، بجانب مدحه للمؤلف بأنه مبدع وعبقري، الحقيقة أعجبني كلامه وأسلوبه، ولكنني بعد انتهائه، سألت نفسي: ماذا قال الرجل؟ وأين نقده للكتاب؟ إنه لم يقل أي شيء، إنه لم يقرأ أي شيء.!

ورأيت بعض هؤلاء النقاد أيضا يعتمد على أكلشيهات ثابتة، ومصطلحات براقة، يستخدمها في كل ندوة وإطلالة نقدية، وتوقن تماما أنه لم يقرأ من الرواية أو الكتاب إلا صفحة واحدة أو صفحتين، وأنه اعتمد على ثقافته في البقية، إذ عرف اتجاه الرواية، وأمعن في الحديث عنه.

علمت أن أحد الأساتذة الكبار، الذين كانوا يناقشون الرسائل الجامعية، قد سأله يوما أحد الأساتذة: يا أستاذنا هل تقرأ هذه الرسائل، فقال له: أعلم جيدا أن هذه الرسائل تصيب بالجهل من قرأها، فقال له كيف تناقشها إذن؟ قال له: أنظر في بعض صفحاتها، وآخذ فكرة عامة من الباحث وهو يوصلني بالسيارة، حتى أفهم محتواها وأتكلم بما عندي من مخزون.!

وهذا لا شك أعده خيانة علمية، فلابد من التحضير والقراءة حتى يؤدي المرء واجبه ويوجه الباحث ويفيده.

وأذكر حينما كنت في المملكة العربية السعودية، وقد زارها الدكتور **أحمد زويل**، وأقيم له محفل كبير ليلقي فيه كلمة، وفي اليوم التالي خرجت الصحف السعودية تنتقد الدكتور **زويل** وأكثر من كاتب سعودي عقبوا على كلمته في نقد لاذع، لأنه لم يقدم شيئا باهرا في كلمته، وتخيلوا أن الرجل كان سيدهشهم بالحديث عن المعجزات العلمية لكنه خيب آمالهم، وكان ذلك سبيلا للحط من مكانة **زويل** وهو الأمر الذي لا شك يستهويهم جدا وبقوة، ويبدو لي والله أعلم أن الدكتور **زويل** لم يأخذ الأمر على ما كانوا يأملون، إذ خيل إليه أنه ربما يتكلم كلمة خفيفة في محفل تكريم، فهو لم يسافر

ليلقي محاضرة علمية، أو ليعقد ندوة حول اكتشاف علمي، لكن القوم كان انطباعهم على هذا النحو المشين.!

وختاما أقول: إذا أردت أن تضايقني وتضعني في موقف محرج، فما عليك حين تراني بين الجمهور في ندوة أو محاضرة من المستمعين، إلا وتنادي علي وتدعوني للحديث، لتكون ساعتها فعلا قد نلت مني أحسن منال، واستطعت أن تصيبني بحرج لا مثيل له، لأني لم أحضر شيئا لأقوله.

مذكرات مجهولة

مذكرات الفلاسفة والأدباء تملأ الدنيا ويعرفها الجميع وتدرس في المدارس.. أما مذكرات الإسلاميين من الدعاة والأئمة والعلماء فمجهولة مع أنها تفوق مذكرات الكثيرين في متعتها وبيانها ورحلة كفاحها... وقد وجب على الإسلاميين أن يركزوا على نشر مذكرات أعلام الدعوة ليتعرف الجمهور القارئ على نضال هؤلاء الأبطال ... إن **طه حسين** ألف قصة حياته الأيام وحينما قرأت قصة حياة الشيخ كشك رأيت في قصته ما يفوق حياة **طه حسين** بما كتب في الأيام..

هناك تقصير كبير، وبخس لحق هؤلاء الأعلام الذين وجب الوفاء لهم بإحياء تراثهم بين القارئين.. أين تأتي مذكرات ثروت أباظة وأحمد أمين وأبو حديد وبدوي والمسيري وسلامة موسى وزكي مبارك ولويس عوض، أمام مذكرات القرضاوي والكيلاني وأنور الجندي وعلى الطنطاوي وعمر التلمساني وعبد الحليم محمود وصاحب مذكرات الدعوة ...

إن إحياء هذه الصور المليئة بالكفاح، ضرورة مهمة ليستلهم الجيل معاني الرجولة الحقة في دنيا هؤلاء الأعلام.

والداعية الفذ الذي يرحل عن الحياة دون أن يسجل مشاهد حياته وما فيها من محن ... ربما قصر كثيرا وغفل عن واجب مهم ودور كبير كان يمكن أن يؤثر به في الأجيال لو أنه سف أيامه وسطر أمجاده.

لقد بدأ **الشيخ الغزالي** في التسجيل لأيامه فلم يكتب إلى بضع صفحات لكنها جمعت المتعة والألم ..المتعة من أحداث حياة هذا العملاق الكبير، والندم الكبير لصغر جمها وضآلة سطورها.

نحن لا نهضم هؤلاء الناس حقهم ونؤمن بأن لكل إنسان تجربته المفيدة في الحياة، ولكن المرء يحزن كثيرا حينما يرى تراث الأبطال الكبار مجهول مضمور لا يعرفه القراء..

فرق كبير بين من كان يتباهى في مذكراته بأنه كان يذهب لبيوت الدعارة المرخصة ليستمتع بصور النساء وفروجهن، وبين أبطال حملوا السلاح لصد المستعمرين والمحتلين أو زجوا في السجون حسبة لله تعالى.

فرق كبير بين رجل قضى حياته ينافح ويصارح لاهثا وراء المناصب والمراكز والتي يحقق في سبيلها الإنجازات، وبين عظيم كانت له عين تسهر في سبيل الله، أو يحرم نفسه متعة الدنيا من أجل الأخرين...

حيا الله المستشار **العقيل** حينما بدأ يسجل في كتابه الناصع الذي جعله تحت عنوان "أعلام الدعوة المعاصرة" ..لقد أرخ للكثيريين من الأبطال والعلماء والدعاة الذين رحلوا ولم يسجلوا آثارهم وحياتهم احتسابا للأجر عند الله.

إن صاحب مذكرات الدعوة والداعية كان أفطن وأدرك من كثير من أتباعه حينما كتب مذكرات الدعوة... وكان من المنتظر أن يقلدوه في هذا المنحى وقد كانوا يقلدونه في كل شيء إلا أن مفهوم الرياء والخوف من ابتغاء غير وجه الله دفعهم ليرموا بذكرياتهم في دنيا النسيان.. ليحرمونا من كثير من المتعة والمعرفة والإفادة.

أرجوك لا تلمني

أعترف أن أكثر طائفة أبغضهم ولا أحبهم ولا أنسجم معهم، أولئك الذين يعشقون اللوم والتأنيب، ولا يفسحون الطريق للتسامح والتغافل والنسيان والتعمية عن كثير من الأخطاء والهنات.

أكثر ما يفسد علاقتي بك أن تكون من أهل اللوم وعشاق التقريع، إنها صفة لا تبقي في نفسي إليك أي مودة أو قربى أو وصال.

إنني أفر من أصحاب هذه الطباع فرار السليم من الأجرب.

وإذا أردت أن تتسع معك دائرة اعترافي فأقول لك:

إن المرأة قد تكون في عيني فاتنة جميلة، ولكن هذا الجمال يتبدد في روعي ويتحول هو وصاحبته إلى كابوس مزعج لا أطيقه ولا أتحمله إذا كانت لوامة أنابة.. إنني ألعن هذا الجمال ولا تستطيع صاحبته أن يكون لها في قلبي مكان أو إعجاب.

وعلى العكس ما أروع المرأة حينما تتجمل بالصفح والعفو والتغافل، ما أذكاها حينما عرفت المعنى الحقيقي لجمال المرأة!.

قد أكون مخطئا لكن اللوم عندي خطيئة.. أرجوك لا تلمني.

أنا ممن يكرهون اللوم جدًا، خاصة إذا كان من أمامي يعرف شعوري بالخطأ وإحساسي بالتقصير، ومع هذا يمعن ولا يكف عن تقريعي بلومه.

هل يمكن لي أن أصارحك، بأن هذه النوعية من الناس مريضة بعقدة نفسية.. إذا جاءتهم فرصة لينفسوا فيها عن عقدتهم، فإنهم لا يتأخرون ولا يتوانون، بل يسارعون لاغتنامها وإعادتها وترديدها، وربما يعيشون عليها يومًا أو يومين او شهرًا أو عامًا، فقد تعودوا تصيد الأخطاء واللوم عليها لأن هذا العمل يداوي في دواخلهم شعورا مرا بالنقص.

إنه المعنى الكبير الذي فطن إليه الشاعر العربي في قوله:

وكنتُ إذا الصَّديقُ أراد غيظي

وأشرفني على حنق بريقي

غفرتُ ذنوبهُ وصفحتُ عنهُ

مخافةَ أن أعيش بلا صديقِ

أذكر وأنا صغير وفي حديقة بيتنا، وكان لي عم أكبر من والدي يمتهن الفلاحة، وكنت وإخوتي نذهب معه لنعاونه في الحقل، وكان هناك نبات يزرعه الفلاحون كثيرًا اسمه -التيل- إذا كبر يحصدونه ويجمعونه ويظل في الشمس حتى يجف ويسلخون جلدته وأليافه ويصنعون منها أحبالًا أو أصفادًا يقيدون بها الماشية، ويستعينون به في كثير من أغراض الفلاحة.. كنت وقتها صبيًّا صغيرًا،

ويومًا ما وجدت في حديقة البيت -علبة كبريت- فأخذت ألهو بأعوادها، وأمسك بعض القش وأشعل فيه النار، ثم أطفئه سريعا حتى لا يتفاقم أمرها.

وبينما أنا أمر على هذا -التيل- الذي كان محصولًا كبيرًا، جال في خاطري أن أشعل النار في عود منه ثم أطفئه.

وما أن أشعلت طرف العود حتى وجدت النار في سرعة البرق تنتقل إلى الطرف الآخر، وأخذت تلتهم كل المحصول في توحش وتوهج، وشبت النار عالية تنبئ عن حريق عظيم، لقد خرج الأمر من يديأ وأنا واقف مذهول لا أدري ماذا حدث؟، ألهذه الدرجة يكون هذا التيل أشد اشتعالًا من البنزين والجاز، ما هذا السحر العجيب؟

وجرى الناس وخرج إخوتي وأبناء عمي والجيران وانقلبت الدنيا رأسا على عقب، وأيقنت أنني سأنال عقابًا عظيمًا، وبالفعل تم العقاب، فما أن أمسك بي والدي ليلًا حتى أشبعني بالعصا ضربًا لا أنساه.

لكن الغريب في الأمر.. أن عمي وهو الفلاح البسيط، لم يتكلم معي ولو بحرف واحد في الأمر، ومع كونه أكثر المتضررين وأوحدهم من الحريق الذي أفقده التيل، إلا أنه تعامل معي وكأن شيئا لم يحدث أبدًا.

كانت هذه الحادثة في الثمانينات، ومازلت أذكرها، وعلى قدر ما أذكر العقاب، اذكر تصرف هذا العم البسيط في حاله العظيم في حنانه ونفسه، فقد كان كثيرًا ما يتغافل وينسى ويحذف المنغصات من حياته.

إنه يعرف جيدًا أنني أشعر بحرج من فعلتي، ولكنه كظم غيظه حتى لا يزعجني أو يضايقني ولو بمجرد اللوم والتأنيب.

الصحفي الكبير الاستاذ **جمال بدوي** كان يحكي عن بداياته العملية في بلاط صاحبة الجلالة، وتدريبه في "أخبار اليوم" مع الأستاذ **مصطفى أمين**، وتحت إشراف الصحفي الكبير **عبد السلام داوود**، كان بدوي طالبا في الجامعة، وكلفوه أن ينقل أخبارها، وكانت هناك علاقة عاطفية معروفة بين أستاذ

وطالبة، وسارع أحد أصدقاء **بدوي** أن يملي عليه خبر خطبتهما، وما أن نشر الخبر، حتى سارع الطرفان لتكذيبه، إذ لم تحدث أية خطوبة

وذهب أهل الفتاة إلى الأستاذ **مصطفى أمين** وهم غاضبون مما تسبب في حرج شديد لإدارة الصحيفة، فاضطرت إلى نشر تكذيب للنبأ.

شعر **جمال** بالحسرة والفشل في بداياته الصحفية، وقرر الامتناع عن الذهاب إلى "أخبار اليوم" حتى يتجنب ما ينتظره من لوم وتقريع.

لقد مرت عليه أيام كئيبة كان خلالها يستطلع الموقف من زملائه في الصحيفة، فكانوا يبلغونه أن هذا الموضوع لم يطرح على الإطلاق خلال الاجتماعات التي يعقدها الأستاذ **عبد السلام داود**، وأبلغوه أن الرجل يسأل عنه ويرجو عودته للقسم، وبالفعل شعر **بدوي** بنوع من الاطمئنان وعاد إلى الصحيفة يستأنف نشاطه.

وكان من المدهش أنه لم يسمع من الأستاذ **داود** أي إشارة للخطأ الذي تسبب فيه **بدوي**، والحرج الرهيب الذي سببه للجريدة .

ويوما ما قدم **بدوي** مجموعة أخبار للأستاذ **عبد السلام** فأخذ يناقشه في خبر منها ومدى مصداقيته، ولما حاول أن يدلل على سلامة الخبر، وقف الأستاذ **داود** ليوجه إلى تلميذه كلامًا مباشرًا عن الخبر المكذوب.

قال له: "إنني واثق أنك تورطت فيها دون أن تتأكد من صحته، ربما لأنك وثقت في مصدره، أو لأنك رأيت فيه خبرًا تافهًا لا يستحق التمحيص.

وهذه غلطة كبرى لأن معظم النار من مستصغر الشرر، وأنت لا تتصور ما سببه هذا الخبر من هلع لأهل الفتاة مما اضطرنا إلى نشر تكذيب حتى نعالج الموقف والاعتذار عما لحق بهم من إيذاء أمام المجتمع".

-قال **بدوي**: "أنا أعترف بخطأي وآثرت الهروب ولكنك ألححت في عودتي ولم تفاتحني في الموضوع إلا بعد مرور وقت طويل".

-قال **داود**: "نعم فعلت ذلك لأنني توسمت فيك أن تكون صحفيًّا مرموقًا، وكنت أعرف مدى حساسيتك المفرطة، ولو أنني تسرعت في محاسبتك، فسوف تهرب ولن تعود، وأكون بذلك قد حرمتك من أمنيتك وطموحك، لقد آثرت التريث حتى لا أفقدك".

-وأنا كذلك إذا أردت أن تفقدني صديقا فما عليك إلا أن تكثر لومي.. ساعتها لن تراني أبدا.

طلاب دار العلوم كفار!

عرفت علماء وأساتذة كبارا من خريجي دار العلوم، وهم يعتزون ببدئهم الأزهري، حيث تلقوا تعليمهم الأول على مناهج الأزهر وتشربوا روحه وطريقته، قبل أن يُكتب لهم النبوغ في أروقة دار العلوم، لكنهم بين الحين والحين، لا يغمطون أزهريتهم أبدا ولا يخذلون أثرها فيهم.

وسبحان الله فقد كان من هؤلاء العالم المؤرخ الكبير دكتور **أحمد شلبي**، والمفكر الضخم العملاق **محمد عمارة** رحمهما الله.

وفي الوقت الذي يظهر فيه أمثال هؤلاء الأبرار الأوفياء، ظهر نمط آخر من الدارسين والمتخرجين، خاصة من أجيال دار العلوم، وهم يستقلون بالأزهر، ويستهينون بمقامه وقدره وأثره وقيمته، فهم لا يرونه على شيء، ومحال له أن يطال من النبوغ في علوم العربية والدين، كما طالت دار العلوم.

وهذه الاستهانة للأسف لم يتول كبرها تلاميذ صغار أو طلبة يفتقدون للحكمة والرشد والتقويم السليم، وإنما قام واستشاط بزعقها أساتذة ومحاضرون في عرين الدار.. وهو مما يؤسف له.

منذ أيام يسيرة حدثني أخي الحبيب دكتور **أحمد فرحات** وكان الحديث يدور حول شخصية الدكتور **محمد رجب البيومي**، الذي لم يقرأ له كثيرا، وقد تعجبت من ذلك أن يهمل الدكتور **فرحات** قامة عظمى مثل الدكتور **البيومي** الذي ضرب في كل فن، وكانت له جهوده الهائلة في النقد والشعر واللغة والفكر والتاريخ، مما حدا بالبعض أن ينادي به عميدا للأدب العربي المعاصر.

كانت صراحة الدكتور **فرحات** كاشفة ليبرئ ساحته، ويلقي باللوم على أساتذته في دار العلوم وهم يصورون له ولأترابه أن الأزهر قبلة الجهل والتخلف، وأن القراءة للأزهريين لا قيمة لها ومضيعة للوقت، فاللغة الحقة في دار العلوم، والنقد الحقيقي في دار العلوم، حتى علوم الشريعة في دار العلوم.

وأمام انطباع الدكتور **فرحات**، أذكر رؤية أخرى لأخي الدكتورعصام أبو زيد الدرعمي المتفوق وهو يحدثني منبهرا بالشيخ الشعراوي لغويا، وكيف أن في دار العلوم شيوخًا كبارًا يعدونه أعلم الناس باللغة.. وتلك سماحة بادية وإنصاف كريم، وإحقاق للحق في مكانه.

ومن قبله كان الدكتور **عبد اللطيف أبو همام**، والذي سارع لكتابة مقالة في الأخبار يقرض بها ويحتفي بالتحقيق الذي أصدره الأزهري النابغة، وعمدة محققي العصر، فضيلة الدكتور **النبوي شعلان**، في تحقيقه لكتاب العمدة **لابن رشيق**، وعنوان المقالة بقوله: العمدة يحقق العمدة!

الدراعمة جميعا يعرفون من هو **أبو همام**، فهو لاشك من مفاخرهم الوضيئة، وهو بعد بهذه الشهادة، يسجل اسمه في سجل الأنقياء المنصفين، ولم لا.. و**النبوي** قد تفرد بما صنع وسما بما فعل، وأتى بما يعجز عنه الكثيرون من فطاحل العلم والتحقيق، فقد أنفق في هذا العمل السادس عشر عاما من حياته.

بل كان بعض الدراعمة يسوؤهم أن يُهمل ذكره، حتى صارحه يوما بقوله: مشكلتك يا دكتور **نبوي** أنك أزهري، ولو أن مثلك في دار العلوم، لسارت بصيتك الركبان.

القضية إذن قد ترجع أحيانا إلى الحفاوة الإعلامية، التي تتنكر كثيرا للأزهر، نظرا لهويته الدينية، وغلبته الإسلامية، وترحب بدار العلوم ورموزها، لتحررها من هذا الجانب بعض الشيء، خلافا لما عليه الأزهر ورجاله.

حتى في مجال الشريعة والعلوم الإسلامية، رأيت من خريجي دار العلوم، من يتنكر للأزهر والأزهريين، ليثبت تفوق دار العلوم حتى في هذا الميدان، الذي يعد الأزهر معقله وحصنه، وقد رأيت بعضهم، وهو يذكر أستاذه **الجليند**، ويطاول به عنان السماء، زاعما أن سموه العلمي الشرعي لم يبلغه أحد من الأزهريين!

وهذا لا شك تجاوز للحق تفجرت به عصبية شائطة، أو عاطفة عمياء.

بل هي روح كئيبة غريبة، تجسد لي ما كان يحدث قديما من صراع المذاهب الفقهية، وتعصب كل فريق لمذهبه.

وقد قيل: يغار العلماء من بعضهم كغيرة التيوس في حظائرها.

التحرش بين الأزهر ودار العلوم بدأ قديما منذ تأسيسها، حينما اعتمدت الجامعة على الأزهر والأزهريين لتدريس الجانب الديني واللغوي في دار العلوم وهيأت له أسباب إدارتها، حتى عدت دار العلوم في هذا الوقت، فرعا من الأزهر الشريف، ولكن بعض الطلاب المتمردين على الأزهر، قرروا الخروج عن سطوته، واستبدلوا العمامة بالبدلة والطربوش، تأسيا بطه حسين الأزهري، الذي خلع عمامته وارتدى الزي الإفرنجي، وقرر الطلاب تنظيم مسيرة تطالب بتغيير الزي الأزهري المفروض عليهم والتجرد منه، وقام الأزهر برفض مطالب الطلاب، حتى وصل الأمر بالشيخ **محمد أبو الفضل الجيزاوي** مفتي مملكة مصر في ذلك الوقت، أن يصدر فتوى بتكفير من يرتدي الزي الإفرنجي من طلاب دار العلوم، بعد حرب فكرية دامت ثلاث سنوات، حتى وافق الأزهر أخيرًا على رغبة الطلاب.

وقبل أن يستاء البعض من هذه الفتوى وجب أن يعرف أسبابها في أحداث هذا الوقت، حتى يتخفف من صدمتها على عقله واستيعابه، فقد سقطت الخلافة الإسلامية قبل هذا الحدث بعامين 1924م، وجعل هذا السقوط من البورنيطة والطربوش رمزا علمانيا، واعتمد **أتاتورك** تصدير هذا الزي حتى للدارسين للعلوم الإسلامية في العالم الإسلامي.. ومن ثم قامت الفتوى اعتمادا على هذا الجانب.

والمراد لي في هذا الميدان أن أقرر أن نبتة دار العلوم هي نبتة أزهرية، من سقاها ورعاها حتى أثمرت وأينعت هم علماء الأزهر، ومحاولة التقليل من الأصل والتجني عليه، شيء مذموم غير لائق، لا يقف على الحق والإنصاف، ففي هذا الصرح العملاق علماء حاذوا قصب السبق في العلوم، وتفردوا في مسار النبوغ بما يُعجز الآخرين.

وأخيرا أحب أن أشير إلى عنوان المقال الذي أردت أن ألفتك إليه ابتداء لإثارتك وجرك لقراءته، فبمجرد قراءتك لكلمة "كفار" ستظن أن كل من يدرس في هذه الدار كافرا لارتكابه أمرا يغضب الله عز وجل؛ ولكن هذا الوصف قد أفتى به الدكتور محمد أبو الفضل الجيزاوي على من يرتدى الزي الإفرنجي من طلاب كلية دار العلوم، وأردت أن أوضح ذلك لأن بعض العقول يعيينا فهمها الحرفي لكل كلمة في النص، دون النظر للفن الكتابي والتحريري والصياغي.

مذبحة فكرية

لن ينسى التاريخ أبدا ولن تنسى ذاكرة الثقافة ولا الفكر ولا الأدب، جناية الحقبة الناصرية وجريمتها في حق الثقافة والأدب، حينما أقدمت على حذف 602 بيتا من الشعر من ديوان شوقي أمير الشعراء، هذا النظام الذي كان ينكل بكل من يخالفه أو يراه معارضا لتوجهه وسياساته، فيمحوه من الوجود، ويذهب به كما يقولون وراء الشمس.

حذفوا هذه الأبيات من الديوان الأصلى، وأصدروا طبعة جديدة خالية منها، بحجة أنها تمدح فى أسرة محمد على والملك، ولكنها للأسف لم تكن كلها مدحًا في العصر الذى سموه البائد، وإنما كانت تمدح وتمجد الحريات والرأي، خاصة حرية الصحافة والدستور، مما اعتبر هذه القصائد والأبيات تغرد خارج السرب.

لقد كان هذا النظام جريئا وقحا في كل شيء، حتى أنه لو قدر له أن يغير نصوص القرآن لفعل، فلم يكن يحترم دينا ولا تراثا ولا ثوابت ولا قيما ولا هوية تجسد شخصية الأمة، وفي الوقت الذي تحترم الأمم الأخرى رموزها من الشعراء والأدباء والعلماء والزعماء، مهما كان من فكرهم وآرائهم، فيقيمون لهم المتاحف وينصبون لهم التماثيل ويحتفظون بكل خصائصهم وأدواتهم وملابسهم، يأتي العهد الناصري البغيض المهزوم بهذه الخيانة الفكرية البشعة، والعدوان السافل على تراث نابغة الشعر العربي بعد المتنبي، وظلت الأمة تتربى وتتناقل هذا البتر الكبير من تراث شوقي، حتى قيض الله –تعالى– لرجل من عشاق الشوقيات أن يدرك الخيانة ويقف على الرزية، فقام بنشر ديوان الشوقيات المجهولة، وقام من بعده الطبيب مصطفى الرفاعي من تقصى المحذوف والمجهول وطبع الشوقيات الصحيحة وأضاف إليها ما محي عنها عمدا واستهتارا وسفها.

ولكن وللحق فإني أجد مبررا للأنظمة الحاكمة أن تفعل ما فعلته في تراث تراه مخالفا لتوجهاتها التي تسوس بها الشعوب، وربما لأن قيادتها ربما تكون عقليا غائبة عن مستوى التقدير المطلوب لمثل هذه المآثر والمفاخر التراثية في إطار العلم والثقافة، لكن المصيبة الأكبر أن يقوم بمثل هذه الخيانة أهل الفكر أنفسهم، وتنبع هذه المهذلة من أهل الثقافة ذاتهم، ممن يدعون إلى التنوير وينصبون من أنفسهم

دعاة الحرية وأعداء الرجعية والتخلف، فإن الكارثة هنا تكون أعظم حينما تفقد هذه الشريحة عدالتها ومروءتها ونزاهتها، وهي تتجنى على التراث الثمين بهذه الجناية العظيمة من الحذف والتشويه والتضليل والتزييف!

وهذا ما فعلوه مؤخرا مع الرافعي إمام البيان في كتابه "وحي القلم"، حينما نشروه في مكتبة الأسرة في عهد مبارك، وحذفوا منه مقال (الأيدي المتوضئة) لأسباب يعلمها من يبحث عن الموضوع، بل فعلوا في تراث الإمام محمد عبده ما هو أشنع وأخبث وأفظع، وهي الفضيحة التي كشف خيانتها العلامة المفكر الكبير دكتور **محمد عمارة** في كتابه التنوير والتزوير، ووصفها بأنها أكبر مذبحة فكرية ثقافية، قل نظيرها في ميدان تزوير الكتب ونسخ المؤلفات، حينما نشروا كتاب الإمام محمد عبده (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) فحذفوا كلمة النصرانية، ولم يكتفوا بتزوير العنوان، بل حذفوا من المحتوى ما كتبه الإمام عن النصرانية في معرض مقارنة أصولها مع أصول الإسلام، حتى قُدر ما تم حذفه إلى ثلاثين صفحة ، ثم قاموا بما هو أبشع وأعمق من الحذف، فلجأوا إلى التزييف بالحشو والإضافة، فأدخلوا في الكتاب ماليس منه، وما لم ينطق به الإمام.

هكذا يفعل قادة التنوير، أو بتعبير أدق قادة التزييف والتزوير، مثل هذه الخيانة الفكرية في حق الإمام **محمد عبده** وتراثه، حتى يحشروا الرجل غصبا في حزب التنوير التغريبي العلماني، وليدرجوه كرمز من رموزهم، وما كان -رحمه الله- إلا مصلحا دينيًّا كبيرًا، وعلامة بارزة وركيزة فكرية أساسية في الدعوة إلى قيام الأمة على دينها وقيمه وتعاليمه إن أرادت فلاحًا أو إصلاحًا.

ولكنها حرب يقودها من لا شرف لهم ولا ضمير ولا مروءة، حين احترفوا أساليب اللصوص والخونة في التعامل مع تراث رموزنا وهم مجردين من الأمانة والعدالة ونبل الخصومة.

العامية لغة المفلسين

أجرينا مؤخرًا حوارًا مع إحدى المبدعات، وكان مما سألناها فيه موقفها من العامية، فأبدت ضيقها بها، وعزوفها عن الكتابة بكلماتها وجملها.

بعض المعلقين لم يعجبه الرد، فكتب يقول: إنها تتكلم عن العامية وكأنها شيءٌ سيءٌ!

وأحب القول: أن كل دعوات العامية التي أذيعت من قديم، لم تفلح وأعلنت سقوطها، وفساد دعوتها، وإيماننا عظيم بأن من يلجأون إلى العامية، ليست لديهم القدرة على الإبداع بالعربية، فهم يهربون منها، ويفرون من ضخامتها، والذين يتذوقون جزالة اللفظ وحلاوته باللغة الفصحى، لا يرون مثل هذه المتعة في التعبير بالعامية.. إنها إذن لغة المفلسين، وطريقة الكاسدين.

كما أن من يكتب بالعامية، ضيق الأفق والوعي، فهو يكتب لقطره فقط، وبلده وحدها، أما من يكتب بالعربية الفصحى، فإنه يكتب لبلدان عديدة، أجمعت على استلهام العربية الفصحى والقراءة والدراسة بها، فهي لغة مشتركة بين الدول العربية، توحد أذواقهم، كما الدين يوحد ملتهم.

كتب أحد أصدقائي السودانيين رواية عامية، وعرضها علي، فرأيت عجمتها تتساوى تمامًا في نظري باللغة الأجنبية، الفرنسية أو الإنجليزية، وقد أفجعني حينما أخبرني، أن اللغات العامية في السودان، تختلف بين الولايات المتعددة، أي أن كل منطقة لها عاميتها الخاصة بها، والتي لا تفهمها المنطقة الأخرى.

فقلت له: لقد ضيقت واسعًا، وحكمت على إبداعك الروائي بالفشل والكبت والتحجيم.

إن الكاتب بالعامية ما هو إلا روائي حكاء، كأولئك الذين يروون القصص والحكايات في الأندية والمقاهي، أما أن يكون من فرسان الأدب واللغة فما أبعده.

الأدب ليس خيالا فقط، والإبداع ليس في حبك الأحداث فقط، مالم أزين ذلك كله بلغة ناصعة، وبيان خلاب، وبلاغة مبهرة.

لا شك أن هذا الكلام سيغضب منه كثيرون، ولا يرضون عنه، ويعدونه تجنيًّا شنيعًا، ورحم الله شيخنا **العماري** حينما كتب وصفه لكتّاب العامية ودعاتها بأنهم السفلة..

ورغم قسوة اللفظ، فإننا قبل الغضب منه، لابد أن نجد له العذر، ولا يسعنا إلا أن نتوقعه من رجل عاش في عرين اللغة العربية، وعايش جمالها وتذوق عذوبتها، وغرق في مفاتن أسرارها، ولو أننا قد أتيح لنا ما أتيح له من التعرف على جمال العربية، لقلنا بأبشع من هذه الأقوال، ضد فتيان العامية ودعاتها.

ولعله كان يدرك خدائع الاستعمار الذي شجع على العامية، ووجد لها دعاة ينادون بها، لا ليقطع الأواصل بين البلدان العربية فقط، وإنما ليقطع الصلة بين المسلم ودينه وتراثه، فقد كانت العامية من أسلحة الاستعمار، في ترسيخ مقاصده لمحو الهوية والانتماء العربي الإسلامي..

ثم يظهر لنا بعض الخبثاء من دعاة العامية، ليحاكوا فرعون حينما استخدم عاطفة حب الوطن ليتنهض قومه ضد موسى عليه السلام، فقال: يريد أن يخرجكم من أرضكم، أقول: حاول بعض الخبثاء ليستخدموا نفس الأسلوب، ويلعبوا على وتر الوطنية، حتى يعبئوا الجماهير ضد لغة القرآن ففي مصر كان **سلامة موسى** يقول في كتابه (البلاغة العصرية): "إنها تبعثر وطنيتنا يقصد بذلك "الفصحى" وتجعلها شائعةً في القوميَّة العربية"

وهو قول ماكر ومحاولة خبيثة معروفة المرامي، من كاتب صليبي التوجه والفكر.. ولكن على ذات الخطى، يرى دعاة العامية، ويحتجون بأنها لغة المصريين؛ ولكن الحقيقة أنها لغة المفلسين، وإذا حاول أحدهم الدفاع عنها، وادعى بأنه قرأ روايات جميلة بالعامية، تحمل إثارةً وتشويقًا، فإنه مخطئ حينما قرن التشويق والإثارة بالجمال الأدبي الذي يعتمد على اللفظ والبيان.

إن الكتابة بالعامية تفريط في الأدب الحقيقي والجمال الأصيل، إن الكتابة بالعامية خيانة للقلم ورسالته.

هكذا أرى.. فلا تغضبوا مني.

الشهرة حظوظ وظروف

هل تصدقني لو قلت لك أن الشهرة في بعض الأحيان تكون رزقا وحظا لا دخل له بالجدارة والجهد والمُكنة والإجادة؟!

نعم فقد تكون هناك ظروف محيطة تجلب لك هذه الشهرة دون تعب منك أو عنت، ولو نظر الناظر إلى إمكاناتك، لوجدها في الغالب صفرًا أو تحت الصفر.

ولكن مع الأيام ينسى الناس فقر إمكاناتك، وضعف مواهبك، ولا تبقى إلا هذه الشهرة المدوية، التي تخلد ذكرك وتبقي اسمك، مما يجعلنا اليوم نجزم أن الشهرة في بعض الأحيان، أرزاق وحظوظ وظروف لا أكثر ولا أقل.

هل تعرف صورة الموناليزا؟

ومن منا لا يعرفها؟!

ولكن ما السبب يا ترى في شهرة هذه الصورة؟ هل هو جمالها وسحرها وروعة ملامحها؟!

إنها لم تكن تحمل أي شيء من معاني الجمال التي يحيكها العالم اليوم ويخصها بها، حتى حدثت لها هذه الحادثة التي أدت لشهرتها الطاغية، وجعلت منها أمثل عمل فني في التاريخ، بل إن هذه الحادثة جعلت العالم كله يتنبه لجمال الصورة، ويوغل في تأمل معانيها وأسرارها، ويحكي ويروي عما فيها من إعجاز مبهر.

لكنه للأسف لم يكن هو الحال قبل أن تحدث هذه الحادثة التي تسببت في شهرة هذه الصورة التي رسمها دافنشي في العصور الوسطى.

في عام 1911م استطاع شاب فرنسي يدعى **بيروجى** كان يقوم بترميم بعض إطارات الصور بالمتحف أن يسرق الموناليزا ويخفيها لديه، وبعد عامين باعها لفنان إيطالي هو **ألفريدو جيري** الذي ما أن رآها وتأكد أنها **موناليزا دافينشي** الأصلية حتى أبلغ السلطات الإيطالية التي قبضت على اللص، وأودعت اللوحة في متحف بوفير جاليرى، وفرح الإيطاليون كثيرا بذلك.

عامان كاملان تسرق فيهما اللوحة ولا يتحرك العالم، ولا تضج فرنسا وتعلن خسارتها الفادحة.. فهي لم تكن في نظرها إلا مجرد لوحة.

ولكن لما علمت فرنسا بالأمر، دارت مفاوضات عبر القنوات الدبلوماسية بينها وبين إيطاليا، وكادت العلاقات تنقطع، لولا أن فرنسا استطاعت أن ترغم إيطاليا على إعادة اللوحة لها ومعها السارق.

كان يوم محاكمة **بيروجي** يومًا مشهودًا، حيث تسابق كبار المحامين بباريس للدفاع عنه، وقد ذكر **بيروجي** في معرض الدفاع عن نفسه: أن الدافع على سرقة الموناليزا، هو أنه كان يحب فتاة تدعى ماتيلدا حبًا شديدًا لكنها توفيت بعد معرفة قصيرة بينهما، وعندما شاهد الموناليزا باللوفر وجد فيها ماتيلدا حبيبته، فقرر سرقتها.

وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة عام واحد فقط.

ومن أجل الظروف والأحداث التي أحاطت بالصورة، كانت شهرتها ومعرفة العالم بها.

كتب أستاذنا **محمود سلطان** مقالا مهما، ذكر فيه أن توت عنخ آمون، أحد الذين تعاقبوا على حكم مصر، ويقال إنه تولى السلطة بين (1334 إلى 1325 ق.م).. كان حاكمًا "تافهًا" لا قيمة له ولا وزن، قتله وزيره وهو في الـ18 من عمره، ليتزوج أرملته من بعده.

لم يثبت أنه ترك تاريخًا من الإنجازات لتخليده.. ومع ذلك فهو أكثر الحكام الفراعنة شهرة.. وهى مفارقة تسأل عن سر هذه الشهرة.. رغم تفاهته وقلة ما تركه من "إنجازات" أو انتصارات عسكرية، كما هو الحال للملوك الفراعنة!

والحال أن شهرته ترجع إلى أن مقبرته الملكية بكنوزه كاملة هي الوحيدة التي اكتشفت.. على يد عالم الآثار البريطاني **هوارد كارتر** عام 1922م

إذا قدر لك أن تشاهد كنوز **توت**، في متحف التحرير (357 قطعة ذهبية).. فستعرف حينها، حجم الجرائم التي ارتكبت بحق المال العام.. فالحاكم في حياته يستولي على ثروات المصريين من الذهب.. ويستخسرها فيهم بعد وفاته، فتدفن معه في مقبرته، ليحرمهم منها عشرات القرون.

ولولا أن المقبرة اكتشفها هذا العالم البريطاني، لما قامت لها هذه الضجة الكبرى!

وشبيه بهذا التصور ما كان من حادثة دنشواي، فتاريخ الاحتلال يغط في مجارز كبيرة ومروعة، كانت أكثر جرمًا وغدرا وظلما وهدرا في الأرواح من دنشواي، ولكن لماذا اشتهرت دنشواي بالتحديد وصارت مضرب الأمثال على الظلم والتجني الذي شهده المصريون على يد الاحتلال الإنجليزي الغاشم؟

كل ما في الأمر أن هذه الحادثة وقتها قد قيض الله لها الزعيم الشاب **مصطفى كامل** ليقلب عليها الدنيا ويندد ببشاعة انجلترا ويفضحها في المنتديات العالمية، ولولم يكن هناك **مصطفى كامل** لابتلعها النسيان، وانطوت في كتب التاريخ شأنها شأن كثير من المآسي والجراح التي مرت بمصر.

أم كلثوم.. أديبة

أرى من وجهة نظري أن لفظة الأديب لا تقتصر فقط على المبدع، وإنما قد يشاركه فيها القارئ المتلقي والمتذوق لهذا الأدب، فهما شريكان في عملية مكتملة هذا يبدع وهذا يتذوق، ولو لم يوجد المتذوق، لما وجد المبدع، ولو لم يوجد المبدع لماتت ذائقة المتذوق.

يقولون أن العرب أهل الفصاحة والبلاغة، وفيهم نزل القرآن الكريم معجزا مهيمنًا، وكان فيهم ومنهم الشعراء الفحول، فهل معنى أنهم أهل الفصاحة والبلاغة، أنهم جميعا كانوا شعراء ناثرين؟

ليس هذا صائبا، ولكن المعلوم أن أغلبهم ذواقون للكلمة متناغمون مع التعبير الرائق.

وهكذا يكون الحس الأدبي عاملا مشتركا كما ذكرت بين المبدع والمستمع.

ونقول كذلك حينما يكتب الأديب روايته أو يكتب مقالته، هل يتذوقها كل الناس وعمومهم؟

إن سطوره لا يقبل عليها إلا عشاقها، والراغبون في هيامها، ومن ثم لهم كتب، ومن أجله قرؤوا.

ومارد الأدب بين المتكلم والمتلقي، هو نفسه ذات المارد، لكن الأول يستطيع التعبير والأخر يستطيع السماع، فكلاهما يكمل الآخر.

بل عندي أن ذوق المتلقين أكثر خدمة ودعما للأدب، فلولاهم ما قامت للأدب قائمة، أو للشعر بارقة.

كنت أسمع أن **أحمد شوقي** كان يؤلف القصيدة، ولكنه في الحفلات والمسابقات والمساجلات لم يكن يلقيها بنفسه، ولكنه كان يأتي بمن لديه موهبة الإلقاء فيلقيها عنه، حتى تكتمل في قصيدته معالم الجمال، بينما حافظ يلقيها بنفسه ولم يستمع لأحد، لأن حافظ شاعر النيل، كان يتمتع بالأداء والإلقاء القوي.

ويمكن للقصيدة أن تموت إذا كان شاعرها فاقدا لبراعة المواجهة.

لقد حاولت كثيرا مع عدد ممن عرفتهم من القراء، الذين أبصرت فيهم حاسة التذوق الأدبي والتي كانوا يعبرون عنها بالقراءة فقط، وبحفظ كثير من مقاطع الأدباء، التي كانوا يتغنون بها وينبهرون بكلماتها، كنت أدرك بشدة ويراودني إحساس أن هذا الحس الكبير، يمكن له أن ينتقل من حالة التلقي إلى حالة الإبداع، لو توفرت له سبل التحفيز والتشجيع والمران، وقد نجحت كثير من

المحاولات، وهو السر الذي لا يفطن إليه كثير من القراء المتذوقون، لا يأتي في خاطرهم يوما أن يكونوا مبدعين، هم فقط من القراء المتذوقين.. لكنهم لو جربوا ووضعوا في خاطرهم هذا الأمل ورووه ونموه، لربما كان وراءه مبدع كبير.

وأم كلثوم كانت مطربة ناجحة، لم تعتمد فقط على موهبتها، وإنما أثقلتها بالدراسة والاجتهاد والصبر والتحصيل والقراءة، ومن ثم تفوقت على أقرانها الشرسين، الذين أحاطوها بالمكائد والمؤامرات، ولعلها وإن كانت مبدعة في الصوت الذي هو موهبة إلهية، فإنها أثقلت هذا الإبداع بمخايل التذوق، فقد علمت أنها قرأت مع الشاعر **أحمد رامي** عددًا كبيرًا من أمهات الكتب العربية التراثية القديمة والحديثة، لقد قرأت معه كتاب الأغاني، ومختارات البارودي، وديوان شوقي، وكثير من الشعراء العرب القدامى، ولم تكتف بهذا، بل أحاطت نفسها على الدوام بعناصر الأدباء والمثقفين والمفكرين في زمانها، مما ساعدها أن تشعر بروح العصر الذي تعيش فيه ولا تتخلف عنه أبدا.. فلماذا كل هذا؟ لماذا القراءة والدراسة، واهتمامها بالثقافة الأدبية؟

لقد قالوا أن ذلك كله قد أسهم في تربية ذوقها وحسها الأدبي، وساعدها على الإحساس بالكلمات التي تغنيها، لتعطيها قدرة عالية على فهم المعنى الكامد وراء هذه الكلمات، لتتمكن من أدائها بالصورة العميقة التي تتناسب معها وتوائم وقعها.

ألست ترى معي أن أم كلثوم أديبة، وإن كانت بصورة أخرى، ألست معي أنها مبدعة وإن كان بطريقة مختلفة؟.

ربما تراها ناقلة للكلمات فقط، ولكنها استطاعت أن تخدم المسيرة الأدبية، فتوصل هذه الكلمات التي شقي المبدعون من الشعراء في نظمها إلى عموم الناس على اختلاف طبقاتهم وألوانهم.

وكان الفضل لهذا كله في الحس الذي تكون، واجتهدت هي في تكوينه، بالدراسة والقراءة.

يقول الشاعر الكبير **أحمد رامي** وهو يقدم نصحه للشعراء: "إذا أردت أن تكون شاعرا فاقرأ الجيد من الشعر العربي والعالمي، وأكثر من الاستماع إلى أم كلثوم، وذلك لأنها تجلو الألفاظ فتجعلها واضحة مشحونة العاطفة، وتخلق لدى من يسمعها في نهم إحساسًا عميقًا بالكلمة والنغم وعذوبة الأداء"

أرأيت بماذا كان النصح، لقد أدرك رامي أن كلمات الشعر هامدة جوفاء، مجرد سطور على أوراق، لكن **أم كلثوم** هي التي أجرت فيها الدماء وجعلت لها روحا تتحدث وتخترق الأسماع والوجدان.

وهو ما عبر عنه الموسيقار الكبير عبد الوهاب بقوله: "إن المستمع لها لا يرى مطربة تغني، ولكنه يرى فنانة تتعب، فنانة تعرق، تعطي كل ما عندها للمستمع، دون أن تضن عليه، إنها تعطيه دموعها وأنفاسها وليس صوتها فقط".

وما أجمل تعقيب الصديقة **هدى كامل** فيما يعضد لمساتها الأدبية إذ تقول:

"لم يكن لأم كلثوم ثقافة وشعور فقط، بل كان لديها ذكاء فني بمعنى كيف كانت تخاطب جمهورها وتطل عليه، لدرجة أنها غيرت في تحفة إبراهيم ناجي "الأطلال" إذ بدأ قصيدته (يا فؤادي رحم الله الهوى ..كان صرحا من خيال فهوى) بحسها الفني لم تطل على الجمهور بكلمة (رحم الله الهوى) وغيرتها (يافؤادي لا تسل أين الهوى...) أرأيت أجمل من حسن الاستهلال هذا! أراه ذكاءً وحسًا رائعًا ونبضًا لكلمات الشاعر! أين نحن اليوم من هؤلاء العباقرة؟! والشواكيش تدق على رؤوسنا بالمبتذل من الكلمات والمشاعر الرخيصة!"

أنا لم أفهم شيئا

الناقد الماهر هو الناقد الذي يوجع بكلماته دون أن يكون ظاهرها إيجاعًا.

والكلمات الموجعة المواربة باب من أبواب الفطنة والحنكة والذكاء، لا يفطنها أي أحد، فهناك من يضرب بلسانه ولا يبالي ليقفز من فمه بثقيل الكلمات وشديد العبارات.

وهناك من ينتقي كلماته التي تبدو في ظاهرها مهذبة عاقلة مألوفة، ولكنها تحوي في أعماقها ما يفجع القلب ويستفز النفس ويهيج غضب الروح.

وأنت إذا نظرت إلى قول **الحطيئة في الزبرقان بن بدر** حينما هجاه بقوله:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها ** واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

فإنك حيال هذا البيت لا تجد فيه شيئا ذا بال، لا تجد فيه سبا أو شتما أو قذفا عنيفا يستوجب ثأر المهجو، ولكن النقاد عدو هذا البيت من أشنع وأبشع ما قيل في الهجاء.

لماذا إذن؟

لقد جاور الحطيئة الزبرقان فلم يحمد جواره، فتحول عنه إلى غيره ولم يفته أن يهجو الزبرقان فكان هذا البيت مما قاله فيه.

وحينما سمع **الزبرقان** ذلك، لم يهنأ له عيش أو قرار، فأسرع إلى أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** -رضي الله عنه- يشكوه أمر **الخطيئة** وما قاله فيه.

فقال له **عمر**: ما أرى هذا هجاءً؛

أو قال: ما أسمع هجاء، ولكنها معاتبة. (وفي رواية أخرى: أما ترضى أن تكون طاعمًا كاسيًا؟، وفي رواية ثالثة: ولكنه مدحك).

و**عمر** هنا لم يكن جاهلا بفحوى الكلام، فقد كان أعلم الناس بذلك، ولكنه أراد درء الحدود بالشبهات.

قال له **الزبرقان**: "أو ما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس؟!"

قال **عمر**: عليّ بحسان، فجيء به ليحكم، فقال: "لم يهجُه ولكن سلح عليه" (أي تغوّط، كناية عن شدة الهجاء).

ويقال إنه سأل **لبيدًا** كذلك، فقال:

"ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأن لي حُمُر النّعم" (أي كرام الإبل).

يتمثل إلي من وحي هذا الموقف مكر عميد الأدب العربي **طه حسين**، لقد كان الرجل ذكيا جدا وداهية جدا.

كان في بعض الأحايين إذا أراد أن ينتقد انتقادا مرا، يتقول بكلمات يبدو ظاهرها هادئا لينا بسيطا لا يبعث على غضب ونكران.

لكنك لو تأملته قليلا في فحوى ما نطق به لرأيتها كلمة تراق في سبيلها الدماء أو تطير على منطوقها الرؤوس.

وهي الكلمة الحويطة التي كان **طه حسين** يستخدمها مع بعض أعلام عصره حينما يريد أن يبدي رأيه في مؤلفاتهم أو حينما يحاول أن ينتقدهم فيها، فهو هنا لا يسب أو يشتم أو يهاجم أو يسخر، وإنما يكفيه فقط أن يقول: أنا لم أفهم كتاب فلان.

وفي سيرة **طه** نجده قد فعل هذه الفعلة مع اثنين من أعلام العصر وأدباء الدهر.

فعلها مع **الإمام الرافعي** حينما علق على كتابه تاريخ آداب العرب الذي ألفه عام 1909م وكان **طه** وقتها طالبا بالجامعة فقال في مقال نشره في (الجريدة) عام 1912م وأعلن فيه أنه لم يفهم من المقال حرفا!

أما الثانية فقد فعلها مع **العقاد** بعد موته ليثير حفيظة تلامذته بأن صرح في اللقاء الشهير الذي استضافه فيه التليفزيون المصري بقوله: "أعترف أني لم أفهم عبقرية عمر ولا عبقرية الصديق، وتعجبت عندما قرأت عبقرية محمد لأنه وازن بين موقعة بدر ومعارك نابليون"

وكلمة لم أفهم، كلمة شديدة وعنيفة، فهي تعني إن صدرت من جاهل أن تدل على جهله، ولكنها تعني إن صدرت من عالم أن العيب في صاحب الكتاب.

وكلمة لم أفهم، كلمة كما قلت رقيقة طريفة لينة لا تدل على شيء، وظاهرها أنك تنتقد نفسك لا تنتقد الآخرين، لكنها تعني في فحواها نقد الآخرين، وكأنها تريد أن تقرر فشل الكاتب، في أسلوبه وتعبيره ومنطقه وبيانه إلى الحد الذي استعجم أمره على القراء فلم يفهموا شيئا.

وإني لأعترف في هذا السياق أنني لم أفهم أسلوب الأستاذ **محمود شاكر** خاصة في كتابه الشهير (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) الذي يحمده القاصي والداني من أنه درة المؤلفات وأروع المكتوبات.. أجهدت نفسي كثيرا أن أعيش أسيرا لجمله وعباراته فلم أتذوق منه شيئًا، وصرت أتعجب وأقول: كيف لهؤلاء المادحون أن يجدوا حلاوة في أسلوب **شاكر** بينما أنا لا أراها ولا أتذوق منها شيئا؟!

إنني لا أفهم شيئا!

وأخيرا اهتديت وعرفت أن هناك نوع من الكتاب الكبار لن تستطيع أن تشعر بأنغام أسلوبهم حتى تتدرب عليه وتعيده وتكرره حتى تحل شفرات ذوقه.

و**شاكر** من هذا النوع الذي يريدك أن تتدرب عليه حتى تشعر بلذته.

لكنني هنا حينما أقول لا أفهم أسلوب **شاكر**، فلا يمكن أن يتساوى كلامي بذلك المقصد الذي يريده **طه حسين** ممن ينتقدهم، فأنا لا أنتقد **شاكرا**، ولا يمكن لي ذلك إذ لا أبلغ ذرة من تراب علقت بكعب حذائه، فكيف للثرى أن يطاول السماء.

ولأنني نكرة في عالم المعرفة، مطمئن جدا أن كلامي لن يؤخذ أنني أعيب تراث العالم الكبير، وإنما سيتبادر إلى الذهن سريعا أن المشكلة فيّ أنا وليست في **شاكر** صاحب إمام العربية وعمدة المحققين.

ناهيك عن هذه الكلمة حينما تكون أخطر كلمة تعبر عن أخطر نقد لو أنها بدرت من عالم فذ أو أديب مشهود، فإنها لتكون نقدًا من قبيل ما نقد به **الخطيئة** غريمه، كلمة يسيرة هادئة لينة، لكنها تجر في أحابيلها عواصف وأعاصير، تماما كما كان يدرك مغزاها **طه حسين**.

الصور المُلهمة

منذ فترة ونفسي تحدثني أن أطبع عددًا من صور المفكرين والعلماء الذين أحبهم وأجلهم، وكان لهم تأثير كبير في ذائقتي ومعرفتي.

إنني أريد تعليق هذه الصور في حجرة مكتبي أو أضع بعضا منها عليه أمام ناظري، أريد أن أشعر بهم أمام عيني يصاحبونني كلما قرأت أو كتبت.. بداخلي إحساس كبير أن وجودهم يبعث على الحماس ويحفز على الإبداع والإلهام.

هل فعلا ينبعث هذا الشعور في نفسي، وأجد ضرورته في ذاتي، أم أنني فيه من المقلدين؟

حتى لو قلدت، فقد وجدت هذه الفكرة تناسبني، ويطرب لها هواي، وتجدها نفسي من أدوات الكاتب المُهمة التي يجب أن يستكملها.

وإذا كان الكاتب يُسلح نفسه باستكمال أدوات الكتابة من تجميل الأسلوب وصقل البيان، فلابد له من قسطه المهم في استجلاب الإلهام، وشعوره بصحبة أهل الفكر والإبداع ممن سبق من العظماء، من خلال صورهم المعلقة المنصوبة.

نعم إنها الصور الملهمة، التي تفتح مغاليق الإبداع للكاتب كلما أراد أن يكتب ويبدع، ليشعر بهم أمامه ومعه في حضرته، يحمسونه ويشجعونه أن يكون منهم ومثلهم، يخاطبهم أحيانًا ويناجيهم أحيانًا أخرى، كلما أراد أن يكتب ويفكر ويتميز ويثمر.

وإذا كان الكاتب يهتم دوما بمكتبته، ويرى أن أرففها أكبر باعث على الإلهام حينما تصطف مرصوصة يتلاحم بعضها ببعض، وهي تحمل أسماء أصحابها الكبار، فإن صور هؤلاء الأعلام لا تقل في بعث الهمة عن قامات كتبهم.

ولقد جاءت فكرة هذا المقال حينما جدد باعثه في همتي، ذلك الحديث الذي دار بيني وبين صديقي الدكتور **أسامة العربي**، وقد كان من التلاميذ المقربين من العلامة الراحل دكتور **محمد رجب البيومي**، وكان مما ذكره لي من هيئة حجرة مكتبته ومكتبه، أنه كان يعلق على الحائط بعضًا من صور الأدباء والعلماء والعباقرة التي اقتصها من الجرائد.

وكان منهم العقاد وأحمد لطفي السيد وعلي الجارم، وبتهوفن وعبد الوهاب.

ولقد جاء الحديث على هامش ما كتبته عن الإمام الرافعي الذي كان أيضا يدرك سر الصور في استجلاب الإلهام، فكان مما ذكرته أنه كان يضع على مكتبه ثلاث صور، صورة الشيخ محمد عبده و صورة الرياضي (صاندو)

وصورة ملكة جمال تركيا في وقت مضى (كريمان هانم خالص) و عندما سئل عن اجتماع تلك الصور، قال عن صورتي الشيخ محمد عبده و صاندو: هاتان قوتان تعملان في نفسي: قوة في روحي، و قوة في جسدي فسأله عن الصورة الثالثة فقال: و هذه.! ما أجملها! انظر! ألا تقرأ شعرا مسطورا على جبينها.

وكان ممن أولع بصور المفكرين والأدباء والفلاسفة إلى الحد الذي صار يعتقد أنه لا يمكن أن يكتب إلا في حضرتهم، بل تطور الأمر معه بشكل مذهل من مجرد صور معلقة، إلى إيجاد تماثيل مجسمة، يرصها أمامه وهو يكتب ويؤلف، فهو أستاذنا **عبد الوهاب مطاوع**، بل كان دائب البحث في سفرياته عن رؤوس التماثيل لهؤلاء العظماء.

أما عن الأدباء والمفكرين الذين أسعى لتعليق صورهم، فهم بين القديم والحديث والعالم والأديب، فأولهم وأبداهم لاشك عندي هو الشيخ الغزالي

-رحمه الله-، أكثر الكتاب والأدباء تأثيرا في نفسي ولفظي، ولا يغيب عني صاحب ذلك القلم الذي أحببته وعشقته، والذي كان يتفجر إحساسا ورقة، أستاذي الجيل عبد الوهاب مطاوع، ولا تفوتني أبدا صورة العملاق أنور الجندي الذي كانت كتبه صحوة للوعي والفهم وكان قلمه رسول الحق والحقيقة، ولايمكن كذلك أن تغيب صورة العقاد عن أي حائط من الحوائط، ومن كتاب الغرب فلا يمكن لي أن أغفل صورة العبقري البائس دوستويفسكي، وسأطبع صورة الرافعي إمام البيان، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والعلامة محمد رشيد رضا، وعلي الطنطاوي، وعبدالحليم محمود، وهناك صور أخرى سأعلقها لا أحب ذكر أصحابها لأن تقديرهم لا تستوعبه بعض الأفهام القاصرة أو المضللة.. لكنني سأعلقها احترامًا وتقديرًا وحبًا لأصحابها، فهو حائطي الذي لا ينازعني فيه أحد، وأعكس على قامته ما أهواه من مثل وشخوص.

ألا تراني بما أفعل قد بررت هؤلاء بعد موتهم، وأحاول تقديم شكر خاص لهم؟ بل هل تؤمن مثلي أن وجودهم باعث على الإلهام؟

بالمناسبة، قل لي أنت ما تريد تعليقه من الصور؟

الصداقة يمكن أن تموت

أحيانا يخيل إلي أنني صرت كبيرا ولدي من خبرات الدنيا ما يؤهلني لفهم غرائب الحياة وطبائع الناس ومستجدات الدنيا.

ولكن يبدو أن الأيام تصر أن تصفعني وتردني خائبًا لتقول بلسان حالها: مازلت صغيرا لم تتعلم بعد.

منذ أن انهيت كليتي عام 2001م وأنا في قمة أساي لفراقي بعض أصدقائي الذين كنت أحبهم ويحبونني، وبيننا لهو وذكريات، ونكات وضحكات، وطعام ومشروبات، وصحبة طويلة وسمر لا ينسى.

فارقتهم وفارقوني بمجرد الانتهاء من السنة الرابعة من الجامعة.

ذهب كل في طريقة ولم تعد بيننا صلة أو معرفة، ولم يكن وقتها قد انتشرت أو وجدت وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت، حتى الإيميلات لم يكن لنا بها علم أو حرص حتى تيسر أمور التواصل.

المهم أنني ومنذ ذلك الوقت وذاك الحين وأنا أبحث عن هؤلاء الأصدقاء بحيرة وشغف وسؤال هنا وبحث هناك، وكنت كلما لقيت أحدًا قريبًا من بلدانهم أسأله على أحدهم طمعا أن يدلني عليه.. ومع ظهور التقنية الحديثة كنت أدخل أسماءهم في خانة البحث لعلي أجد شيئًا يدلني عليهم، فأعيد ما كان بيننا من محبة ووداد.

أكثر من عشرين عاما وأنا أبحث فماذا حدث؟.

أما أحدهم فاهتديت إليه بالصدفة حينما أخبرني بعض أصدقائنا أن له أخًا يعمل في جهة ما، فتوصلت إليه وأخذت رقم أخاه، وحدثته عبر الماسينجر، وكنت في قمة فرحي وسروري حينما وجدته، وياليتني لم أبحث عن شيء ولم أجهد نفسي توقا إليه، ليتني قتلت هذا الشوق الذي تغذى طوال هذه الأيام على الوهم..

فقد وجدته فاترًا باردًا يرد علي بقوله: أهلا أهلا أستاذ حاتم حياك الله أخبارك وأخبار كل أصدقائنا..

وقد يظن القارئ أنه رد ردًا جميلًا مناسبًا لم يفقد حفاوته، ولكن الحال ونبرة الصوت كانت تتفجر بالبرود الذي لا روح فيه، يدل على هذا أنه بعد نهاية المكالمة لم يفكر في الاتصال ولو مرة وقد مرت على مكالمتي له عدة شهور.

لم أكن أتوقع أن يناديني بالأستاذ وهو ما تعجبت له، لكنني علمت أنه نال الدكتوراه وسافر إلى دول الخليج، فأدركت أن الرجل ليس على استعداد أن يسقط الحاجز العلمي حتى مع صديق له كانت بينهما عشرة طويلة وود قديم.

هل تتخيل أو تصدقني لو قلت لك: إنني قلت ساعتها لنفسي: كم أنت أبله!

ولكني عاودت أحدث نفسي وأقول لها: لعل هذا الصديق حالة فريدة، فلنبحث عن صديق آخر وياليتني ما بحثت وماوجدت.

فقد كان في نبأ هذا الصديق الثاني من العجب العجاب ما لم أتخيله.

فقد كان من قرية قريبة من قريتنا وكنا في أغلب الأيام نغدوا ونروح سويًّا، نتحدث كثيرا ونضحك أكثر، حتى أنني زرته يوما في بيته، وبعد التخرج انقطعت الصلة وافتقدته وسافرت أنا إلى المملكة العربية السعودية أكثر من عقد من الزمان، ومن يومها وأنا دائم البحث عنه، أسأل عنه من ألقاهم من أفراد قريته فلا يعرفونه، فأصف لهم بيته فلا يهتدون إليه، حتى وجدت قريبًا لنا من هذه القرية، وأخذت أصفه له، فعرفه وقال لي: إنك لو ظللت طوال عمرك تبحث عنه بهذا الاسم فلن تجده أبدا، لأن له اسما للشهرة غير الاسم الحكومي الذي تعرفه به.

المهم أخبره وأعطاني رقم هاتفه، واتصلت به وحدثته، وكنت سعيدا جدا بالحصول عليه، فإذا به يرد علي ويقول لي: سامحني أنا مش فاكرك..

هنا أسقط في يدي وكدت أصعق، وشعرت كمن أخذ لطمة على قفاه..أخذت أذكره بكل شيء وكل موقف وكل أصدقائنا، فتذكرهم جميعا إلا أنا، كانت حالة غريبة.. إلا أنني تعلمت بعدها ألا أسأل على صديق قديم أبدا، وأن الصداقة القديمة إذا انقطعت فقد ماتت وانتهت، ولا تحاول إحياءها مرة أخرى.

وهنا لا أنكر أن بعض الأصدقاء القدامي ممن غابوا عني كثيرا ووجدتهم قد لقيت منهم ترحابًا كبيرًا وودًا عظيمًا، وكأننا قد تفرقنا بالأمس، وهؤلاء لهم محبتي وأشهد أن نفوسهم سوية وأخلاقهم عفية لم تتبدل أو تتغير.

أما أولئك الذين تغيروا وتبدلوا، فكم أنا نادم على كل لحظة صرفتها في التفكير فيهم، أو شغلتها في البحث عنهم.

وما زلنا نتعلم.

وهنا أعود إلى عنوان المقال، فأقول: إن الصداقة فعلا يمكن أن تموت، لكنها عند الأصيل لا تموت.. أما الخسيس فما أهونها عليه!.

السياسة عالم مهين

عالم السياسة عالم بغيض، ولا يخوض غماره إلا أشخاص ذو سمات وصفات فولاذية، يستطيعون من خلالها تحمل المشاق من دروب الخصومة والشقاق والإتهامات والإشاعات والكراهية والبغض والدسائس والمؤامرات والأكاذيب والخداعات والمقالب.

ولكن هل ياترى يمكن لأهل الفكر والأدب والعلم، أن يخوضوا هذه المسالك الوعرة، وأغلبهم أرق الناس أفئدة وبصيرة وحسًا وشعورًا؟

لقد خاضها كثير منهم فلم يجنوا إلا كثيرًا من الغرم والغم حتى اعتزلوها وتابوا عنها! ولعل **العقاد** خير نموذج في هذا المجال حينما طلقها بالثلاثة، وتفرغ **للعقاد** الجديد والمختلف، عقاد الفكر والأدب والشعر والتأليف!

ولعلي هنا أسوق بعض الأمثلة لما تعرض منهم بسببها إلى خداعات ومقالب أساءت لهم ولم يستطيعوا الإفلات من تهمتها.

كان الشاعر المرحوم «حفني ناصف» من أظرف شخصيات الجيل الأسبق، ومن أكثرها تدبيرًا للمقالب الساخنة.

وأشهر مقالبه ما دبره للمرحوم «توفيق البكري» شيخ السادة البكرية، وكان الشيخ على علاقة سيئة بالخديوي «عباس حلمي الثاني» الذي كان يتهمه باستمرار أنه يدس له لدى السلطان العثماني، ولدى الصدر الأعظم في اسطانبول، كما اتهمه بأنه هو الذي حرض «مصطفى لطفى المنفلوطي» على كتابة قصيدته التي هاجم فيها الخديوي وكان مطلعها:

قدوم ولكن لا أقول سعيد ** وملك وإن طال المدى سيبيد

ولما كان «حفني ناصف» من أصدقاء الخديوي فقد فكر في تدبير مقلب ساخن لشيخ السادة البكرية، واعتمد في ذلك على معرفته بنفسية الشيخ، الذي كان شديد الثقة بمواهبه الأدبية ومعلوماته وشاعريته الفذة. وفي أحد الأيام قال له **حفني ناصف**:

– هل تبارينى في الشعر؟ وما كاد يتم الكلمة، حتى قامت قيامة الشيخ، واستفزه أن أحدًا يظن نفسه يستطيع كتابة شعر أفضل من شعره، وصاح **بحفني ناصف** أن يختار أي موضوع يرغب في المباراة فيه، وليثق بأنه مهزوم.

وتظاهر «حفنى ناصف» بالتفكير، وأخذ يستعرض أغراض المشعر، ويهون من شأنها ، ثم اقترح في صيغة التضعيف أن يتباريا في مدح رذيلة اللواط بالفتيان، وتفضيلها على غيرها من ضروب المتعة الطبيعية.. هذا إلا إذا كان الشيخ لا يعرف الكتابة فيها.

وصاح الشيخ مستفزًا:

– كيف ؟

وأبدا استعداده للكتابة على الفور، وأخرج ورقة وقلما وأخذ يمدح هذه الرذيلة، ويستطرد ما شاءت له شاعريته، وعندما انتهى أكد له حفني ناصف، أن شاعريته لا تبارى.. وأخذ ما كتبة معه

ووصلت القصيدة إلى الخديوي عباس، فسر بها سرورًا عظيمًا، وأخذ يشهر بالشيخ في كل مكان، وكان «البكري» معروفا بصلته بدار المندوب السامي، فتعمد الخديوي أن يعرض القصيدة على « اللورد كرومر» ومن يومها لم يُدع شيخ السادة البكرية لأى حفلة من حفلات اللورد.

وفي عام ١٩١٣م حدث أن رشح المفكر الديمقراطي «أحمد لطفى السيد» نفسه لعضوية الجمعية التشريعية، في إحدى دوائر مديرية الدقهلية –وكان أيامها رئيسا لتحرير الجريدة، ومن أعيان الناحية المعروفين ـ وهو ما أقلق منافسه «عثمان سليط» وجعله يوقن أن الدائرة سوف تطير مائة في المائة.

وكاد سليط، يتنازل يأسًا من الفوز، لولا أن صديقًا له أقنعه بأن هناك وسيلة تقضى على منافسه، وعلى الفور اختار مجموعة من أعداد الجريدة، التي تحمل مقالات «لطفى السيد» في الديمقراطية، ومساواة الرجل بالمرأة، وبدأ الاثنان يطوفان بالدائرة، فإذا ضمهما مجلس، قال الصديق:

–إن «لطفى بك، كفؤ ونزيه.. بس يا خسارة!

فإذا سأله الحاضرون:

–على ايه يا سيدنا البيه؟

قال: لو ماكنشى ديمقراطي، وينشط أحد أنصار «لطفى السيد، إلى دفع الاعتراض، متسائلا عن عيب «الديمقراطية» ، عندئذ يقول الصديق:

ـ ألا تدري ما هي الديمقراطية ؟ إنها مصيبة على الدين وعلى العادات! ألا يطالب لطفى بك بمساواة المرأة بالرجل؟ طيب أليس من حق الرجل أن يتزوج بأربع نساء؟ فإذا تساوت المرأة والرجل في الحقوق .. ألا يكون معنى ذلك أن تصبح للمرأة نفس حقوق الرجل، فتتزوج هي الأخرى بأربعة رجال؟ إذا كان هذا يرضيكم يا حضرات الناخبين، فانتخبوا صاحب هذا الرأي المخالف لدين الله وأحكام الشرع وعادات المسلمين

وبعد هذا يناول الصديق السامعين أعداد «الجريدة، ليقرؤوا ويتأكدوا بأنفسهم من صدق الكلام، وهو ما كان ينتهى عادة بإلقائها على الأرض مصحوبة بكلمات نعوذ بالله إن هذا لكفر صحيح.

وأصبح « لطفى السيد » من يومها معروفا باسم «لطفى الديمقراطي» إذا جاءت سيرته تصاعدت على الفور كلمة: لطفى الديمقراطي.. اخص.. دا ديمقراطي.. يدعو لاستباحة الأعراض، واختلاط الأنساب والخروج على أحكام الشرع الحنيف ولم تكن المسألة في حاجة الى مجهود بعد ذلك، فقد طارت الدائرة.

فن قراءة الوجوه

قراءة الوجوه فن من الفنون، ومهارة من المهارات التي لا يتقنها أو يستوعبها إلا أهل الإلهام والحكمة من جانب، وأهل الولاية والوصل والمعرفة من جانب آخر.

فهم في شفافية وفراسة تكشف لهم المخبوء خلف أعين الناس ولحم وجوههم.

ولا شك أننا نعد مثل هذه القدرات من باب المعجزات، أو الخوارق التي لا يؤتيها إلا المعجزون من الرجال.

وهناك من الناس من لا يحتاج الأمر لماهر أو واصل أو متفرس حتى يقرأ وجهه.

فإن وجهه يفضحه، ومكتوب عليه حاله ومآله.

ومن الناس كذلك من يخدعك وجهه، فيبدو عليه أنه قليل تافه لا قيمة له، بينما هو عظيم من العظماء، وقامة تعتز بها القبائل والأوطان.

أو هو ممن عناهم النبي الكريم: رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره.

وعلى العكس نجد من أصحاب الهيئات الفخمة من هو خاو النفس والعقل والحلم، كذلك الرجل الذي دخل على **الشافعي** فهابه واستحى منه فاستوى في الجلوس، فلما تكلم أمام **الشافعي** رأى عجزه واستخف بحقيقته، وقال قوله المشهور: آن للشافعي أن يمد رجليه.

ومن الناس من تظهر الريبة على وجهه إذا ارتكبها فقط، كذلك الرجل الذي وقع في الزنا فدخل على عثمان بن عفان فقال: مالى أرى الزنا في وجه الرجل؟

بل كانت قراءة الوجوه إحدى الدلائل التي تريح طلاب الهداية في الحكم على صدق النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– كما فعل عبد الله بن سلام حينما قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة فجاء لينظر إليه وقال: فلما استثبت وجه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب"

وكان رسولنا الكريم من قراء الوجوه، ومما قاله في (الحطم) الذي قتل مرتدا، واسمه شريح بن ضبيعة الكندي – أتى النبي –صلى الله عليه وسلم– من اليمامة إلى المدينة، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لأصحابه:

"يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان" ، ثم خرج من عنده ، فلما خرج قال عليه الصلاة والسلام: "لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبي غادر، وما الرجل بمسلم"

ولعن الله هذه الوجوه التي تخفي حقيقة أصحابها، فتلقى أحدهم لتجده يرسم على وجهه رقي الخلق ونبل الأصل وطيبة المعدن، وصفاء النفس وعفة الروح، وهو من أخبث الخلائق وأحط الناس.

وكان مما يزعمون في ذلك الشأن: "الشَعر الناعم يدل على الجبن، بينما الشعر الخشن يدل على الشجاعة". "الوقاحة تبرز من العيون المفتوحة ذات الجفون المحتقنة"[1] بينما يعتبر الأنف العريض دليلاً على الكسل، كما هو الحال في الماشية. الشفاه الممتلئة رآها الفلاسفة علامة على الحماقة، أما أصحاب الشفاه الرقيقة فهم في العادة فخورون بأنفسهم كالأسود، كما يقولون.

والقرآن الكريم كان سباقا إلى هذه الحقيقة التي ترشد إلى قراءة النفوس من الوجوه.

(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلًا ظل وجهه مسودًا وهو كظيم) (الزخرف:17).

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) المطففين: (22: 24)

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) الفتح: (29).

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ) الحج: (72).

ولله در القائل:

لا تسأل المرء عن خلائقه ** في وجهه شاهد من الخبر

يقولون أن هناك خمسة أنواع من أشكال الوجوه يجب عليك معرفتها، ومنها:

-الوجه المستطيل: يتسم أصحاب هذا الوجه باللياقة البدنية والعضلات، ويميلون إلى النرجسية وبعض الإشكاليات في علاقاتهم، ويتسم نمط تفكرهم بالعملية والمنهجية.

-الوجه المستدير: من المعروف عن أصحاب هذا الوجه الحساسية والرعاية، وهم أذكياء جداً، ويتميزون بالدبلوماسية، ويعانون من بطء في عملية صنع القرار، كما أنهم حالمون، ويسعون لعلاقات مستقرة وطويلة الأجل.

صفات صاحب هذا الوجه: ذكي، دبلوماسي، لديه ذهن تجاري، قابل للتكيف، متفائل، يميل إلى الرعاية، حساس، حدسي، حالم.

-الوجه البيضاوي: يتمتع صاحب هذا الوجه بشخصية متوازنة إلى حد ما، جميلة وساحرة، دبلوماسية جيدة، تعاني من ضعف في القوة البدنية، تكون غير منطقية قليلاً في بعض الأوقات.

صفات صاحب هذا الوجه: معدل الذكاء مرتفع، يتصف بالكمال، اللياقة البدنية ضعيفة، جريء، رائد أعمال، جيد في صنع القرار، ملتزم بالانصياع للقواعد.

-الوجه القلب: معظم الأشخاص الذين يمتلكون الوجوه على شكل قلب ليسوا مولعين جداً بالعمل في الهواء الطلق، ويفضلون قضاء أوقاتهم في التحليل واكتساب المعرفة.

صفات صاحب هذا الوجه: مفكر، زعيم، مسؤول، فلسفي، محب، مثالي، يهتم بالمعرفة أكثر من المال.

-الوجه المربع: يعتقد أن هؤلاء الناس لديهم عقل ذكي وتحليلي وحاسم، ويرتبط شكل الوجه بالطبيعة العدوانية والهيمنة عكس الحقيقة.

صفات صاحب هذا الوجه: منهجي، عملي، محافظ، هادئ، موثوق، حذر، يبحث عن الاستقرار.

-الوجه المثلث: أصحاب هذا الوجه رقيقون، ويملكون إقناعًا فكريًّا، ولديهم قدرة على التفكير المبدع، ويتميزون بالفكاهة والضحك وحب المرح.

صفات صاحب هذا الوجه: منفتح على الخارج، مسلٍّ، مزاجي، يحتاج إلى جمهور، يتمتع بشخصية مرحة.

ولكننا نؤمن أن الطبيعة والبيئة والتربية هي الحكم الفصل في تكوين الإنسان وإعداد طباعه، وليس للخلقة شأن في هذا.

ما أروع الظلم!

هي جملة قد ينطقها بعض من يحبون العدل؟

ولكن كيف لعشاق العدل أن يعظموا الظلم ويمدحوه، وهو في أعينهم وعرفهم وأخلاقهم أعدى أعدائهم، ونقيض سلوكهم، ولدد هواهم؟!

أحيانا كثيرة يتسبب الظلم في رقي العدل، ويخدمه ويمكن له بما لم تمكن له كثير من الإجراءات والسياسات والقرارات، ويا لها من معادلة غريبة، ونظرية متناقضة، يدهش معها العقل ويتأمل في روعها المتأمل!

ومع البصر بأحوال التاريخ والاعتبار ببعض أحداثه وصوره ندرك هذا المعنى الغريب، والطور المدهش لعجيب، فنعرف أن الظلم يمكن له أن يكون من أمنع الوسائل التي تخدم العدل وتمكن له.

مما عرف به المنصور أنه كان شديد الشغف بالمال، بارعا كل البراعة في ابتكار الطرق لجمعه والحصول عليه، بل كان بخيلا ممسك اليد، ومما يذكر أنه قرر أن يبني خندقا وسورا حول الكوفة،

وقرر أن يجمع نفقته من الأهلين، ورغب ألا يفوته أحد منهم ، فأمر أن يمنح كل فرد خمسة دراهم، فتقدموا جميعا لأخذ هذه الدراهم، وبذلك تمكن من حصر عددهم، ثم أمر أن يجبى من كل واحد أربعون درهمًا، وقد سجل الشاعر هذه المظلمة بقوله:

يا لقوم ما لقينا ** من أمير المؤمنينا

قسم الخمسة فينا ** جبانًا أربعينًا

ولعل المنصور كان يدرك في قرارة نفسه، أن هذا الظلم وهذا البخل وهذه القسوة على الرعية، مما ينفع ولده من بعده وولي عهده المهدي، فقرر أن يجري حيلة ويمكر مكرًا يستفيد منه ولده من بعده، يتلعب فيها بعقول الناس ويخدعهم في أموالهم، فكان إذا صادر أحدا على مال، وضع ذلك المال في مكان خاص في بيت المال، وكتب عليه اسم صاحبه، فلما مرض مرض الموت، قال لابنه المهدي: يابني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه، ليدعو لك الناس ويحبوك.

وهكذا السياسة فلا يهم أن يلقى الرجل ربه وهو على خير، بقدر ما يهمه أن يمكن للولي الجديد، هكذا موازين الساسة وأقدراهم، لا قيمة تقدرها لظروف الناس وأحوالهم، وهكذا يتلعب الخليفة بأقوات الرعية وأرزاقهم، ليكونوا محور خدعة يمكن بها للخليفة القادم.

لقد كانت هذه الصورة من صور الظلم الذي يمكن للعدل، ومن صور الظلم المحمود عند الولي الجديد، لأنها تمكن له في قلوب الرعية، وتجعل الألسنة تسير بحمده وشكره والثناء عليه، ومعرفة الفرق الهائل بينه وبين سلفه الظالم البخيل!.

ولعل من صور الظلم الرائع الذي نتج عنه خير كثير، وحظيت به أمتنا المصرية بما لم تحظ به أمة في التاريخ، هو الظلم الذي كان يعانيه المصريون من الحكم الروماني قبل دخول الفتح الإسلامي، فإن هذا الظلم هو الذي ساق المصريين أن يعشقوا الإسلام، ويشعروا بالفرق الهائل بين المسلمين العادلين وبين سلفهم المجرمين، كان هذا الظلم سببا أن يذوب المصريون في الإسلام وحياة المسلمين، فتطبعوا بطباعهم، وتكلموا لغتهم، وأحبوا رموزهم، ولم يستطع شعبا من شعوب الأرض

تقبل الإسلام ولغته وقيمه وأهله بهذه السرعة كما تقبلها المصريون، ولا يرجع هذا لجمال الإسلام وحده، وإنما لبشاعة الظلم والقهر الروماني، الذي أشعر المصريين بروعة هذا القادم الجديد.

انظر للفرق بين المصريين والفرس، لقد جعلوا من أنفسهم في ثأر مع الفتح الإسلامي بعكس المصريين، ثأر قومي أو شعوبي، فاحتفظوا بلغتهم وطبائعهم، ولم يذوبوا في أحضان الإسلام بالصورة الكاملة، كما فعل أهل مصر، بل نتج عن هذا الثأر مقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وظلت فئات كثيرة من الفرس تحيق بالإسلام وخلافته المكر والتلاعب ببيوت الخلافة في عقود طويلة منه، بل حتى التلاعب ببعض علومه ومعالم حضارته.

صور كثيرة في التاريخ تشهد بما يدره الظلم على العدل من كرم وعطاء، أكثر مما يدره عدل العادلون وإنصافهم، وحقا كما قيل: إن في بعض الشر خيرا!.

ولعلها تكون الصورة الوحيدة، التي يردد فيها المنتفعون ويهتفون: يحيا الظلم.

سلطان العادة وإلف المنكر

الإلف وما أدراك ما الإلف؟!

من أشد وأخطر الأحوال التي تضر بالإنسان، لو أنه ارتكب المعاصي واقترف المساوئ، ثم بعد ذلك تدرج به الحال ليألفها، فتصير عادة وشيئا مألوفا، ويهجر ذلك الألم القديم الذي هدم نفسه من الحزن وعصر قلبه من الهم، عند اقترافها أول مرة.

لكنه اليوم يضحك ويسعد ولا يجد أي شعور بالألم والتقصير، لأنه وصل إلى درجة الإلف، وتحول الذنب والسوء إلى عادة متكررة.

كان لي صديق متدين يحكي لي أنه ذهب إلى بلد أوروبي، وحينما وصل إلى هناك، فزع من حجم ومقدار العري والسفور الذي لم يألفه في بلاده، ثم قال: لم يمر على شهر أو شهرين، حتى وجدت ذلك أمرا عاديا تعايشت معه وألفته، حتى أن عوامل الإثارة التي كانت تتحرك في بواعثي النفسية، لم يعد لها أثر كبير لكثرة ما تشبعت به من هذه المشاهد.

ولعل هذا هو ما كان يخيف أبا الحسن الزيات -رحمه الله-، فكان يقول: "والله لا أبالي بكثرة المنكرات والبدع، وإنما أخاف من تأنيس القلب بها؛ لأن الأشياء إذا توالت مباشرتها أنست بها النفوس، وإذا أنست النفوس بشيء قل أن تتأثر به".

وتبعه في ذلك الإمام ابن القيم بقوله: (إن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك؛ فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله).

قرأت للصديقة **رشا صلاح** منشورا رائعا دقيق التعبير عن سلطان العادة الغشوم، لقد كان من سجلات الأدب العالمي الرائعة المذهلة، وتحديدا من تراث دوستويفسكي في الجريمة والعقاب

عندما إضطرت **سونيا مرميلادوف** الفتاة الطيبة الخجولة رقيقة القلب وذات الجسم النحيل والتي لم يترك لها الفقر شيئا عندما إضطرت لممارسة البغاء وبيع جسدها الصغير من أجل إطعام أخواتها الثلاث وزوجة أبيها المريضة بالسل التي أنهكها المرض؛ عندما عادت سونيا من أول مرة مارست فيها البغاء وهي تحمل المال مقابل بيع جسدها .. دخلت المنزل وتوجهت إلى السرير الذي تنام عليه زوجة أبيها المريضة وقدمت لها المال ووضعته على المنضده لتطعم به أخواتها.. ثم توجهت إلى سريرها وغطت رأسها ووجهها بالكامل واستدارت نحو الحائط وأخذت تبكي وترتجف ... فذهبت نحوها زوجة أبيها "كاترينا إيفانوفنا" ودون أن تقول كلمة واحدة ؛ ركعت عند قدميها وأخذت تقبلها وتبكي ولا تريد أن تنهض وبعد ذلك نامت هي وسونيا متعانقتين معا كلتيهما يبكيان.

مشهد تراجيدي عسير جسد فيه "دوستوفسكي" بعبقرية هشاشة وضعف الإنسانية أمام جبروت الواقع وقسوة الحياة وإلى أي مدى يمكن أن تصل هذه القسوة.

بعد هذا المشهد قال العظيم " دوستوفسكي " جملته الشهيرة : بكوا في أول الأمر ثم ألفوا وتعودوا ؛ إن الإنسان يألف كل شيء ياله من حقير.

إنه سلطان العادة وإلف المنكر.

دفاع عن مصر والمصريين

عاب علي بعض الأصدقاء اهتمامي وعكوف دائرة حديثي عن الأدباء والمفكرين المصريين، وعدم الالتفات إلى غيرهم من أبناء العروبة النابهين.. بل أشار الزميل أن ذلك عيب المصريين جميعًا، وأنهم منغلقون على أنفسهم لا يبصرون إضاءات الغير، ثم لمس لنا صديقي العذر في هذا العيب، معترفًا أن مصر قبلة المبدعين والمثقفين العرب في كل المجالات وهو العذر في عدم اهتمامهم بنظرائهم العرب.

استشهد صديقي بالأستاذ العقاد -رحمه الله تعالى- وقد كان يستشيط غضبا من الشاعر العراقي الزهاوي، بعد أن ذاع صيته عربيا وعراقيا ووصفه بأنه ليس بشاعر ولا فيلسوف فرد عليه الزهاوي بالمثل من مقهاه الشهير الذي يحمل اسمه، وما يزال إلى يومنا هذا "مقهى الزهاوي" وهناك العديد من الأمثلة ..ولعل ما يعزز هذا الرأي هي المقولة الشهيرة التي ذاعت بين جيل المثقفين العرب ومنهم العراقيون والمصريون وخلاصتها "أن القاهرة تؤلف ...بيروت تطبع ...بغداد تقرأ "

والحقيقة كما نافح صاحبنا بقوله: إن بغداد لا تقل تأليفًا عن القاهرة، إلا أن مشكلة الأدباء والكتاب العراقيين أنهم -باستثناء الوردي- يجنحون إلى الكتابة الأكاديمية النخبوية بما يصعب على العوام فهم مرادهم بخلاف الكتاب المصريين فإنهم يكتبون بطريقة السهل الممتنع، وبإمكان العوام فهمه واستيعابه، المنفلوطي نموذجٌ.

وإذا كان صاحبي قد ذكر عداء العقاد وهجومه على الزهاوي، فليقل لي: من سلم من هجوم العقاد، لقد هاجم الجميع مصريين وغير مصريين، هاجم الرافعي وطه حسين وشوقي والمنفلوطي وغيرهم كثيرين، بل هناك سمة تكاد تقترن بمن يهاجمهم العقاد، وهي النبوغ والعبقرية، فالعقاد لا يهاجم إلا العباقرة النابغين.

والحق أن هذا الكلام فيه نظر ورأي، وفيه دفاع يجب أن نرده لنجلي صفحة المثقفين المصريين، فالمصريون قد رحبوا واعترفوا وكرموا وأكبروا كثيرا من الأدباء والمفكرين والعلماء، الذين لم يكونوا من بيئتهم ووطنهم، وليس على ما يشاع أبدا من تنكرهم للغير وحربهم له، وهذا المعنى يحتاج لكثير من التذكر والتأمل والتبصر.

لقد كانوا هم أول من أطلق على **شكيب أرسلان** لقب "كاتب الشرق وأمير البيان"، وأطلقوا على **خليل مطران** لقب "شاعر القطرين"، وهم من أطلقوا على **جمال الدين الأفغاني** لقب "حكيم الشرق"، واحتفوا به حفاوة عظيمة لم يجدها في أي بلد دخله وتجول فيه، ولم تكن له من ذكريات تحكى كما حكي عنه في مصر، حيث التف حوله المريدون والتلاميذ.

ثم انظر إلى حبهم ورعايتهم للعلامة الكبير الإمام **محمد رشيد رضا**، الذي بلغ به حب المصريين له أن كان يشتم شيخ الأزهر ويختلف مع بعض الرموز الكبيرة من بيئة المصريين، ولا يعترضه أو ينكر عليه أحد.

بل كيف توجه هذه التهمة العنصرية للمصريين في ميادين الثقافة، وقد ترقى مشيخة الأزهر رجل غير مصري، وهو العلامة الشيخ الخضر حسين تونسي الأصل، وكان له وكيل سوداني وهو الشيخ محمد نور، وشيخ كلية الشريعة الشيخ عيسى منون فلسطيني.

كما رحبت مصر ومثقفيها بكثير من أعلام الصحابة والتجديد كالأستاذ محب الدين الخطيب الذي أنشأ صحيفة في مصر، ومحمد كرد علي والنشاشيبي والمغربي وغيرهم ممن لاقوا حفاوة كبيرة من المصريين.. حتى عبد الرحمن الكواكبي المصلح السياسي الكبير، الذي سافر إلى آسيا: الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا، ثم إلى مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطانة العثمانية، وذاع صيته في مصر وتتلمذ على يديه الكثيرون فيها وكان واحدًا من أشهر العلماء.

بل انظر ماذا كان من إشادة بغير المصريين في أدبهم وأشعارهم، فهذا أمير الشعراء شوقي، وليس بعده مما يستدل به، انظر إلى الشوقيات لتجد فيها رثاءات ومدائح لغير المصريين كفوزي العزي، وأمين الريحاني وعمر المختار ومولانا محمد علي، وهو ما يعطي دلالة على نفاء هذه التهمة لدى المثقفين المصريين.

العنصرية عموما لا تعرف طبيعتهم معاني العنصرية، فهم أكثر الشعوب التي ترحب بالآخر وتندمج معه، أو تقبل اندماجه معهم، ليشعر ساعة حلوله أنه بين أهله وفي وطنه.

السياسة مقصد الأدباء

في الخمسينات وما قبلها كان عصر الأدب والإبداع، وقدر لهذه الحقبة أن يظهر فيها عدد من النوابغ قلما أن يجود الزمان بمثلهم، كان بعض الأدباء يتزلفون العمل السياسي كطريق لانتشار أدبهم والترويج لمؤلفاتهم، وكذلك كان الساسة والأحزاب يتبنون الأدباء والكتاب، حتى يكونوا ألسنتهم الصادحة التي تزود عنهم أو تسير صحفهم، وهو ما لفت إليه (زكي مبارك) حينما كان يشكو حاله وفقرة وقلة حيلته، ويعرض بأستاذه (طه حسين) ويكتب عنه أنه لم يظهر أدبه إلا لأنه يتزلف للسياسيين فيقول: "أنت لم تترك حزبًا إلا خدمته، ولا جريدة إلا توددت إليها"

ثم يعقد المقارنة بين حاله وحال أستاذه، فيؤكد على هذا المعنى مرة أخرى:

"قضيت دهري بلا نصير ولا معين، وسأظل كذلك طول حياتي، لأقيم على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع"

ثم يشكو ما هو فيه من إهمال وعوز فيقول:" إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من البلاغ أجرا علي مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود، إن بني آدم خائنون تؤلف خمسة وأربعين كتابًا، منها اثنان بالفرنسية وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة، ومع هذا تبقي مفتشًا بوزارة المعارف".

كثير من الأدباء في تلك الحقبة لم يكونوا أسيري أدبهم وهوى إبداعهم، وإنما كانوا يسخرون أدبهم للحالة الرائجة في المجتمع حتى يظل ذكرهم قائمًا في الساحة الثقافية ويكونون فرسانًا للميدان بآرائهم وسطورهم، وحتى تروج سلعتهم فيتكسبون منها، ولا يلاحقهم الفقر والتلف، فالنشر كما أشار (نجيب محفوظ) هو المجد كل المجد في تلك الأيام، وكان الجميع يكتب في الأدب والروايات والنقد والترجمات والصور الأدبية المتنوعة، ولم يكن لهم شيء من الكتابة الدينية والتوجه الإسلامي، فلما قامت الصحوة الإسلامية في المجتمع المصري وأوجدت قطاعًا عريضًا من المتدينين، وطالبي الثقافة الإسلامية، بدأ توجه الأدباء للكتابة في الإسلاميات، فخرجت عبقريات العقاد وإسلاميات طه حسين وهيكل باشا وغيرهم.

وفي حياة أدبائنا صور ونماذج ممن ضيق عليهم الفقر بخناقه، لكنهم صمدوا له ولم يستطع أن يصرفهم عن طريقهم لأنها قد تمكنت منهم إلى حد العلة التي لا فكاك منها، أو الإدمان الذي لا برء منه.. فعبقري كـ(العقاد) فقد بلغ به أمره أن يؤلف كتابا عن (سعد زغلول) حتى يساهم في إنعاش حالته المادية، ويروج لاسمه أكثر وأكثر، وقد قيل إن دار الطباعة التي نشر فيها (العقاد) هذا الكتاب قد أعلنت أن ثمن الكتاب قبل الطبع أقل من ثمنه بعد الطبع بقيمة الثلث، فأقبل المواطنون على شراء الكوبونات التي طبعت لهذا الغرض، وفي أسبوع واحد بيع أكثر من ثلاثين ألف كوبون، فحصل العقاد على ثمن الطبع من الربح واعتمد عليه فترة من الوقت لا تقل عن سنة تقريبا.

وما أكثر الأزمات في حياة (العقاد) فلم تكن لديه ثروة كبيرة يعتمد عليها، أو راتب ثابت من وظيفة ثابتة، وكذلك لم تكن له ثروة ورثها عن أبيه يرتكن عليها، ولم يكن يملك غير مهنة القلم يعيش مما يدره عليه من مال زهيد، فكم من صحيفة عمل فيها وتوقفت، وكم من وظيفة عين فيها وتركها إما انتصارًا لكرامته أو احترامًا لذاته، فيضطر ليبيع كتبه ليقتات من ثمنها، وتتفاقم أزمته ويحل به ضيق شديد لا يجعله قادرًا على تسديد إيجار مسكنه في القاهرة، وكاتب مثله وبموهبته وثقافته، كان يستطيع أن يكون ثريًّا لو أنه تملق الحكام ومالأ الوزراء والأثرياء، لكنه كان عفيف النفس نزيه اليد.

حتى المناصب كان يعرض عنها، لأنه يعشق قلمه ولا يرضى به بديلا، كان للعقاد مزاج عجيب، فقد كان يكره الوظائف الحكومية وينفر منها، ويطلق على الموظفين (رقيق القرن العشرين)، وقال مرة: "لا أنسى حتى اليوم أني تلقيت خبر قبولي في الوظيفة الأولى التي أكرهتني الظروف على طلبها كأنني أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الأسر والعبودية"

عمل (العقاد) بوظائف عديدة ولم يعمر بها، في المديريات ومصلحة التلغراف ومصلحة السكة الحديد وديوان الأوقاف وغيرها، فلم يطقها جميعا أو يصمد في أحدها..

لم يكن -رحمه الله- ممن يتزلف إلى السلاطين، ولم يكن ليقبل منهم نعمة أو عطية، ولو قبل وأراد لكان أغنى الناس وأثرى الأدباء والمفكرين، لكنه لم يفعل ذلك تقديرا لقلمه الذي ضحى من أجله بكثير من متع الدنيا، كل هذا ليكون قلمه عزيزًا ويحيا به شريفًا، ورغم الفقر المدقع إلا أن نفسه لم

تضعف أبداً أو تخنع أمام محنته، ولعل هذه الرغبة في دنيا النبل، هي التي دفعته أن يهجر السياسة والسياسيين، والدوران في فلك الأحزاب، والانتصار لزعمائها.

تروي الدكتورة نعمات أحمد فؤاد:"كان فريق من كبار رجال الصحافة أعضاءً في مجلس الشيوخ، وأريد الإنعام عليهم بالباشوية، ولكن القانون يحرم عليهم أن يحظوا بهذه الرتب أو غيرها من النياشين، لأنهم أعضاء في البرلمان، فتم الاقتراح عليهم أن يستقيلوا من المجلس ثم ينالوا الباشوية ثم يعاد تعيينهم مرة أخرى في المجلس.. لقد قبلت الأغلبية منهم الاستقالة لتظفر بالباشوية كخليل ثابت وأنطوان الجميل وغيرهم، ولكن واحدا فقط من هؤلاء رفض هذا الإنعام السامي، إنه العقاد!.

حتى عقب الإفراج عنه من السجن، أرسل القصر إليه من يغريه بمنصب مدير الإدارة العربية في القصر، لكنه رفض كذلك، ثم عرض عليه منصب مدير دار الكتب، فرفض ثم مديرًا للجامعة فرفض، ثم الوزارة في حكومة الإئتلاف السعدي لكنه رفض كذلك، وعرض عليه غير ذلك من الوظائف الكثيرة والمهمة، لكنه رفضها حفاظا على قلمه وما يدره عليه من متعة وقيمة لا تضارعها قيمة.

التهمة.. يهودي !

بعض الناس حينما يريد أن يشوه صورة خصم له أو يثير حفيظة الناس عليه، فما عليه إلا أن يدعي أن أصله يهودي.

ويدلل على هذه الفرية بما شاء من بواعث الإتهام.

لأنه يعلم أن هذه التهمة وحدها، كفيلة بازدراء الموسوم بها، أو التحسس من معاملته، أو النظرة لها بعد إطلاقها عليه بأي نوع من الاطمئنان.

والحق أنها عنصرية يرفضها الإسلام ويستنكر إطلاقها أو التسليم بها، فليكن هذا المتهم أصله يهوديٌ أو كافرٌ أو أي ملة من الملل، ولكن ماذا عنه الآن وكيف حاله وما موقعه؟ إنه مسلم موحد بالله ملتزم بتعاليم الإسلام، ولقد جاء في الحديث الشريف أن الإسلام يجب ما قبله، ولربما نتعجب حينما

تصدر مثل هذه التهم العرجاء وتطلق على أئمة في الدين والعلم وأناس لهم في الدعوة قصب السبق والفضل العظيم.

وهذه التهمة سياجها وحظ الناس معها قديم قديم، ضارب بعمقه في تاريخ الإسلام.

حتى عصر النبي -صلى الله عليم وسلم- فقد بلغ صفيةَ أن حفصةَ قالت: "بنتُ يهوديٍّ فبكت فدخل عليها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وهي تبكي فقال ما يُبكيكِ؟ فقالت: قالت لي حفصةُ إني ابنةُ يهوديٍّ فقال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إنك لابنةُ نبِيٍّ وإن عمَك لنبيٌّ وإنك لتحتَ نبِيٍّ فبِمَ تفخرُ عليك؟ ثم قال اتقي اللهَ يا حفصةُ.

ولعل هذا يعود لما تكونت به فكرة المسلم عن اليهود، فهم أخبث الناس وأكثرهم شرا وكيدا للإسلام والمسلمين، أي أنهم في تصور المسلمين رمز الشر.

ولقد بلغت الحساسية القديمة أن صار المسلمون يتحسسون من أي يهودي حتى ولو حسن إسلامه وهو ما تناول به بعض الرواة متشككين في الصحابي الجليل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار لأن أصلهما يهودي.

وعبر العصور الإسلامية تتعجب كثيرا حينما أراد خصوم الإمام ابن رشد أن يشوهوا صورته، فلم يجدوا إلا ذات التهمة لينعتوه بها، حتى يجسدوا أمام الناس شره ومكره وسوء منهجه.

الرجل الذي يعد مفخرة الأمة الإسلامية لم يجد حساده ومبغضوه غير هذه التهمة لتكون أقصى ما يعمدون به لتشويه سمعته، فقد حاول بعض هؤلاء الحساد أن يطعنوا فيه بعد نكبته وخلافه مع الخليفة، وحكم الأخير عليه بالإقامة الجبرية في قرية (أليسانة) بجوار قرطبة، والتي كانت مسكنا وتجمعا لليهود، فقالوا: إن الخليفة نفاه إليها لأنه ينسب إلى بني إسرائيل، وأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس.

وكان هناك مبعث آخر لهذا الاتهام وهو أن أغلب الأطباء والفلاسفة في الأندلس من أصل يهودي أو نصراني، وهو مما عضد التهمة وساند الشبهة.

وأنا لا أعلم ما الحرج في أن يكون أصله يهودي،ولكنه أسلم وحسن إسلامه وزاد على هذا بأن كان من العلماء والفقهاء الذين أفادوا الدين والدنيا وقدموا الكثير من ثمار عقولهم وطرح إبداعهم.

إن إحياء مثل هذه الأقاويل هو منكر يرفضه الإسلام وعنصرية بغيضة لا يعترف بها.

وفي العصر الحديث كان أبرز من استخدم هذه التهمة وأشاعها هو الأستاذ العقاد، حينما كان وفديًّا متعصبا، ورأى أن جماعة الإخوان المسلمين صار لها نفوذها الشعبي الذي بدأ يسحب البساط من تحت حزب الوفد، فعمد العقاد وكان وقتها كاتب الوفد الأول، إلى تشويه الجماعة ووصف مرشدها حسن البنا بأن أصله يهودي مغربي.

لأنه ووالده مهنتهم تصليح الساعات وهي مهنة اليهود في المغرب، لأجل هذا التوأم في المهنة يرجع أصله لليهود.

والحق أن هذا الاتهام لا أعلم كيف صدر من الأستاذ العقاد الذي له رأي وعقل يحترم، ولا يمكن أبدا تحت أي ضغط أو رغبة أو هوى أن يميل عن الحق والصواب من أجله، فكيف يغيب عنه نسب حسن البنا؟

ألا يعلم ابن من هو؟

إن والده من أكبر علماء السنة في عصره، بل لم يكن مجرد عالم عادي يروي السنة وينشر علومها في الآفاق محدثا راوية، ولكن الرجل ترك تراثا عظيما يعرفه علماء التخصص بأنه عمل ضخم غير مسبوق، وهو ترتيب وشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل والذي سماه (الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني)

رجل بهذا العلم وهذه القدرة وهذه القدم الراسخة في خدمة الإسلام والسنة يتهم هو وولده بأن أصولهم يهودية؟

كيف هذا؟

وحتى إن صار فما الضير إذن أن أصولهم يهودية ثم أسلموا وحسنوا إسلامهم وصاروا من خدم هذا الدين؟!

لقد كان الامام القاضي أبو زرعة بن إبراهيم أول قاض للشافعية في مصر في دولة ابن طولون، عام 284هـ وكان جده يهوديًّا وأسلم.

وفي كتاب الأذكياء لابن الجوزي كما نقل الدكتورإبراهيم عوض في كتابه عن ابن رشد عن ابن الأشعث قال: سمعت أبي يقول: كان هارون الأعور يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وحفظ القرآن وضبطه وحفظ النحو.

فناظره إنسان يوما في مسألة فغلبه هارون، فلم يدر المغلوب ما يصنع فقال له: أنت كنت يهوديا فأسلمت.

فقال له هارون: أفبئس ما صنعت؟

أي هل ما فعتله شيء بئيس مرذول؟

بل لا أبالغ إن قلت لك: إن بعض اليهود الذين أسلموا كان لهم أعظم الفضل على أمتنا، بل قاموا بخدمتها أعظم قياما وقدموا لها أعظم ما يعينها على حفظ الدين والملة.

فهذا الأزهر الشامخ الذي تعتز به الأمة الإسلامية وهذا أثره في نشر العلم وتخريج العلماء، فهل تدري من أقامه وأنشأه وأسسه، ومن هو صاحب فكرته؟

إنه رجل كان في أصله يهوديًّا على غير ملة الإسلام؟!

نعم وبكل اندهاش وتعجب.. فمن صنع هذه المدرسة العملاقة، التي ظلت على مدار أكثر من ألف عام شامخة عالية رفيعة كريمة، تدفع بالعلماء، وتخرج الدعاة الذين أرسوا معالم الهداية والنور في جنبات الدنيا، رجل كان في أصله يهوديًّا.. لكنه اهتدى للإسلام وصار رفيع المكانة علمًا وقدرًا وجاهًا..

فما الحكاية وما القصة؟!

إنه الوزير الأجل كما كان يلقبه الخليفة الفاطمي العزيز بالله، واسمه (أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس) واسمه يدل على ذميته، وكان يهوديًا نشأ في بغداد وغادرها في شبابه إلى الشام، حيث عمل بالتجارة ولما أثقلته الديون وعجز عن أدائها، فر إلى مصر في عهد (كافور الإخشيد) واتصل به وصار من رجاله، وأقام ببعض المهام المالية بخبرة وبراعة، وكثرت أمواله حتى أعجب به كافور، ولما بلغه أنه قال عنه: (لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا) رأى الإسلام أفضل الطرق لتحقيق طموحاته، فدرس قواعد الإسلام وأصوله سرًا، ثم أعلن إسلامه، حتى علت مراتبه وقويت

أواصره واشتهر أمره وقويت منزلته، ولكن بعض وزراء البلاط خافوه، ولم يعجبهم تقدمه ولم يرق لهم نفوذه، وتوجسوا من مستقبله شرًا، فدسوا له الدسائس وأوغروا عليه الصدور، فنظر في أمره وعلم أنه أوقع به، ففر هاربا إلى المغرب عام (357) هـ، ولحق بالمعز لدين الله الفاطمي، والذي كان في هذا الوقت يتجهز لغزو مصر، ولقيه المعز بحفاوة كبيرة، وقدر فيه مواهبه وملكاته، واستعلم منه أنباء مصر وأحوالها ومواطن قوتها ومكامن ضعفها، وظل معه حتى تم فتح مصر، فولاه المعز الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشؤون المالية، وعهد إليه بشؤونه الخاصة، ولما توفي المعز عام (٣٦٥)هـ، تولى بعد ولده العزيز بالله الذي كانت منزلة ابن كلس عنده أفضل من منزلته في عهد أبيه حتى أنه لقبه بـ(الوزير الأجل) وصار أقوى رجل في الدولة.

قال عنه الذهبي: "وكان عالي الهمة، عظيم الهيبة، حسن المداراة، داهية، ماكرًا، فطنًا، سائسًا، من رجال العالم فكان من أنبل الوزراء، وأحشمهم، وأكرمهم، وأحلمهم "

لم يكن (ابن كلس) كما ذكر عنه وزيرًا وسياسيًا فقط، بل كان عالمًا وأديبًا كبيرًا، محبا للعلم والعلماء، وكان يَعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية، ينتظم في سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء، ويُشرف عليها بنفسه ويهتم بروادها ويغدق عليهم العطاء، ولم يكن محبًا للعلم فقط، بل كان من المؤلفين والمصنفين حيث وضع كتابًا في القراءات، وكتابا في الفقه، وكتابًا في آداب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكتابا في علم الأبدان والصحة، ومختصرًا في فقه الشيعة، وكان يُناظر العلماء ويقرأ كتبه بالأزهر الشريف.

جلس ابن كلس في رمضان عام (369)هـ وقرأ على الناس كتابا ألفه في فقه الشيعة وهو الكتاب المعروف بـ(الرسالة الوزيرية) وكان الناس يلتفون حوله ويهرعون إلى سماعها، حتى جاء تفكيره بعد ذلك في اتخاذ الجامع الأزهر معهدًا للدراسة المنظمة المستقرة، فاستأذن الخليفة العزيز بالله في أن يُعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس، يحضرون مجالسه ويلازمونه ويعقدون مجالسهم بالأزهر في كل جمعة وكان عددهم (37) فقيها ورتب لهم العزيز أرزاقًا وجرايات شهرية حسنة، وأنشأ لهم دارًا للسكنى بجوار الأزهر وكرمهم وشرفهم وأعطاهم كذلك (ابن كلس) من ماله الخاص،

وكانت هذه الخطوة هي البداية الأولى للجامعة الأزهرية، والانطلاقة الكبرى للمعهد العلمي العريق..

كل هذا كان بفضل الوزير (ابن كلس) وبعد نظره وحبه للعلم.

وختامًا أقول: مرحبا بكل من كان أصله يهوديا وقدم للإسلام مثل ما قدم هؤلاء.

التاريخ الأدبي يرحمكم الله

الدراسة تمنحك كثيرًا من الفهم والوعي والإدراك، وتساعدك بشدة أن تفهم فهمًا سليمًا، وتعي وعيا دقيقا بكل ما يقال حولك ويُطرح أمامك، بل إنها تعصمك من الخطأ والزلل والتقول بأمور خارج نطاق المكتوب الذي تقرأه عينك.

وهكذا درسنا مادة التاريخ الأدبي أو تاريخ الأدب في المراحل الثانوية الأزهرية، درسناها بتوسع فائض، وعلى مقررات لأعلام اللغة من أساطين الأزهر الكبار كالدكتور الفذ **علي العماري** وغيره من العباقرة، لقد أدركت أهمية هذه المادة باكرًا وكان من فرط حبي لها جمعت كتبها الأربع في مجلد واحد، مازال في مكتبتي إلى اليوم.

لقد استفدت من هذه المادة كثيرا في التاريخ والنقد والتحليل وهو ما دعاني أن أتحدث اليوم عن أمر مريب.

منذ أيام تحدثت في مقال تحت عنوان (كلا لم يتب) وكنت أعني به الشاعر المرموق المعروف، **الحسن بن هانئ والملقب بأبي نواس**، والذي كان مع جودة شعره وبراعة نظمه، آية من آيات المجون إن كان للمجون آيات، ولكن بعض الناس ممن لا دراية لهم بهذه المادة الكبيرة، أخذوا يعترضون علي بأقاويل غريبة ومفاهيم مستعجمة فيقول لي بعضهم:

أمره عند ربه

الله وحده من يحاسبه

مالنا وحاله مع الله..

إلى آخر هذه المقولات المدهشة التي تثير العجب وتجعل المرء يضرب كف الحيرة على كف الفزع.

بل إن بعضهم اتصل بي وحاول أن يفهمني أن ما كتبته أمر تافه فماذا يفيد أن الحسن تاب أم لم يتب، مالنا ولهذا الأمر الذي لا يفيد بشيء، والحقيقة أنا لم أستطع الرد، لأن هناك من الأمور والحجج من لا يستطيع المرء أن يردها لولوغها وشرودها عن المعرفة الحقيقية..

بل إن ثالثا استنكر علي ردودي على الأصدقاء بأن ذلك المقال يتبع علم التاريخ الأدبي، واعتبرها جملة مستهجنة وجدالًا مذمومًا، ومحاولة للهروب من نقد الجمهور، ولما حاولت تفهيمه، ظنني أجادل بباطل وطالبني بالكف.

وسبحان الله لقد تخيلت وقتها حال **جاليليو** وهو يخبر الناس بحقائق العلم، ثم يحكمون عليه بالزندقة والإعدام، بل تخيلت حال زرقاء اليمامة، وهي تخبر قومها بما رأته عينها للشجر الذي يمشي، ثم يكذبونها ويرمونها بالجنون، وكان في تكذيبهم هلاكهم.

نعم عشت هذه الحالة على مدار ساعات ماضية، كيف أفهم الناس أن ما كتبت أمر مهم ليس بتافه، يُسهم في فهم نفسية شعر شاعر كبير من أعظم الشعراء العرب نظمًا، وأفسدهم قيمًا، وتوقفنا على مزاجه الغريب وحالته النفسية التي اختلط فيها شعر الهداية بشعر المجون، فنكون أقدر على فهم نفسية وغرض وطبيعة الشاعر وما ماجت أو هاجت به نفسه؟

ومن المحزن أن بين المعترضين كتاب وطلاب أدب، وهو ما دفعني للسؤال بحيرة:

كيف يسلكون تيار الأدب وهم جاهلون بهذه المادة المهمة في صنع الأديب والناقد؟ هذا لا يجوز، ولعل هذا يشير إلى أن الأديب لابد له من ثقافة واسعة حتى يعي كثيرًا مما يطرح فيما يهوى ميدانه.

مالنا يا قوم وحديث الإيمانيات والروحانيات والمصائر التي تنطلق بالعبد إلى الجنة أو النار؟!

كيف خلط الناس حديثي بهذه الناحية، وهل تراني أكون أنا الذي أخطأت ابتداء، حينما طرحت مثل هذه الأفكار الخاصة التي لا تتقبلها عقول الذين لم يدرسوا مثل هذه العلوم؟ ربما يكون الخطأ من نصيبي لكن عذري أنني أوضحت هذا الظن في مقالي مرتين، ومع توضيحي للأمر، أرى الناقد والمعترض يترك المقال كله، وينطق بما نوهت عليه وأبديت شرحه للمعترضين، وكأنه يكيدني ويريد أن يقول لي أن ما حذرت منه ما هو إلا هراء.

اعلم أخي الفاضل أن هذا القلم الذي تقرأ له، لا يمكن أبدا أن يكتب في شيء عبثي لا قيمة له.

وإن رأيته يوما يكتب فيما لا قيمة له، فثق أن العيب فيك لا فيه ولا في صاحبه.. ابحث في مواطن نفسك أنت ربما لم تفهم القصد أو تقف على المعنى المنشود.

وحذار -رضي الله- عنك أن تظن أنني أتعالى على أصدقائي أو أتكبر عليهم بعلم.. حاشا لله أن أكون ذلك أو أنتوي مثل ذلك، ولكنها خواطر نفسية أثارتها تصلب المعلقين ورسائل المعارضين.

إن مادة التاريخ الأدبي يا صديقي، وحتى تكون منها على علم وفهم، تتناول حال الشعراء والأدباء والخطباء، وتدرس بيئاتهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية التي تسهل على الدارس فهم طبيعة شعر كل عصر من هذه العصور، والتي تساعد الناقد أن يعي مقاصد شعرهم، ولا يستغرب منهم بعض المعاني التي قد يستنكرها مع عصر مختلف.

ومادة التاريخ الأدبي حينما تدرس سيرة وحياة الشعراء والكتاب، فإنها لا تدرس سيرهم فتروي ما طاب من نوادرهم ومآثرهم ونتف أخبارهم فقط، بل إنها كما يقول الباحثون: "تغمر الدارس لها بعلم منظم فيكون ملما بمدى ثقافة هؤلاء الأدباء والشعراء، وتطور حياتهم، وما تأتى لهم من اختبارات واتصالات وأذواق ومشاعر، وما تهيأ لهم من أمزجة ورثوها أو اكتسبوها"

ولقد ضرب لنا مثلًا بالمجتمع الجاهلي الذي نشأ أدبه في صحراء وحياة بدوية، ولولا علمنا بأن الحياة في الصحراء حينما يقبل عليها الربيع، فتكتسي الأرض خضرة ترعاها الماشية فتدر ألبانها وتسمن لحومها، ولولا علمنا كذلك بأن المجتمع البدوي تتعارك فيه القبائل ويكثر بينها الغزو والإغارة فيعز المن والاستقرار، لما استطعنا أن ندرك ما قاله النابغة في الثناء على الملك النعمان حينما مدحه قائلا:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ** ربيع الناس والبلد الحرام

لقد أنزل النعمان الممدوح منزلة الربيع، لأنه في الربيع كل الخير للناس، وأنزله كذلك منزلة البلد الحرام لأن فيه الأمن من السلب والنهب وسفك الدماء.

وهكذا أثمرت دراسة البيئة والتاريخ والمجتمع وطبيعة العصر فهما دقيقا لقول الشاعر، تستطيع معه أن تفهم بدقة تشبيهاته واستعاراته وألفاظه ومراميه.

بل كما قيل كذلك عن شعر أبي العتاهية فهذا الشاعر الذي أحب جارية الخيزران أم المهدي، ولم يوفق في هذا الحب شأنه شأن كثير من العشاق، فتصيبة حسرة الحرمان ومرارة اليأس، لتصرفه عن مسلك المجون، إلى مسلك الزهد، ان إدراكنا لهذه النكسة العاطفية أبانت لنا الحقيقة في شعره، وجعلتنا نقف على طبائع شعره الزهدي.

والحديث يطول ويطول في هذا الشأن، وعلى كل طالب للمزيد أن يتجه للقراءة والدرس والتعلم.

بقي أن نقول لك: إن أبا نواس لم يتب، وأن ما قاله من شعر التوبة والزهد والورع، كانت نوبات إيمانية تصيب الشاعر أحيانا.. ولم تكن توبة كما يظن البعض.. أي أن الرجل رغم مجونه كانت تلمسه بعض لحظات خير فيخلط مجونه ببعض الصلاح.

العلم ليس حكرًا عليك وحدك

بعض الدارسين والباحثين و المؤلفين، حينما يتصدر لعمل من الأعمال فيؤلف كتابًا أو يعد بحثًا أو يحقق مخطوطة، ينتابه شعور بأن هذا الميدان الذي كتب فيه، ملك له وحده، وأن أي باحث إذا حاول الكتابة فيه بعده، فمعنى ذلك أنه يعتدي عليه ويبدد جهوده، أو يسطو على سابقته، وكأنه يقول للناس: إن العمل الأول غير واف وغير جدير، والعمل اللاحق، أكمل وأحسن وأوفى منه أو يظن الكاتب الأول ذلك أيضًا.

والحق أن هذا النوع من الاحتكار الثقافي، لا حق للمؤلف الأول فيه، بل هو منحى يضر بالفكر والبحث والمعرفة، أما إذا حاول المؤلف الأول أن يدافع عن عمله، ويتهم ما جاء بعده، بأنه دون مستواه، فهذا أمر لا حق له فيه، وليس من شأنه، وإنما هو حق القراء وحدهم هم فقط من يحكمون عليه بالإجادة أو الضعف.

والحق أن السبب في هذا قد يظهر نتيجة المعايشة والأنس الذي يطال عاطفة الباحث في موضوعه الذي يكتب فيه، فيشعر بعد أن تتلبسه حالة البحث، أن هذا الموضوع ملك له وحده، وليس لأي أحد أن يملك الحق في الكتابة فيه وعنه!.

وهو لا شك وهم يقود إلى الأنانية، فعلى الباحث أن يترك العنان للجميع أن يلجوا ميدانه ويعرض كل منهم بضاعته، والقبول فقط لن يكون إلا من نصيب القيم منها.

أما هذه الغيرة التي تثير عداوة وتحدث شقاقًا، فلا داعي لها.

وربما يكون العمل الثاني والمتكرر لم يضف إلا شيئا يسيرا، أو أنه كتب بلغة مغايرة، وأسلوب مختلف، فليكن إذن لأن هذا اليسير ربما يكون إضافة جديدة تفيد البحث، وربما يكون الأسلوب كذلك مما يناسب أذواقا أخرى لم يرق لها أسلوب الكتاب الأول.

منذ فترة كتبت مقالا حول الدكتورة **بنت الشاطئ** التي لا حظت عليها انتقاد أي محاولة جديدة لتفسير القرآن الكريم تظهر على الساحة، كانتقادها لعمل سيد قطب ومصطفى محمود، إذ يبدو أن تفسيرها البياني للقرآن الكريم جعلها تعتقد بأن تفسير القرآن ملك لها وحدها، أو أنها تصورت أن المحاولات الأخرى تنادي بهدم جهودها في هذا الميدان.

منذ قرون مضت قام شقاق بين البدر العيني والإمام ابن حجر، في شرح صحيح البخاري، فقد بدأ ابن حجر عمله في الشرح، ثم جاء البدر مقلدا له وناقدا لأحكامه، مما فسره ابن حجر أنه سرقة وتقليد فاحش، ولا شك أن في شرح البدر جديد في التناول والأسلوب قد أفاد حتى ابن حجر نفسه حينما أجبره أن يعدل كثيرا مما كتب في الفتح بناء على نقد العيني له.. أي أن الكتابة في نفس الموضوع أفادت الموضوع والباحث نفسه، حتى وإن كانت قد أغضبت الكاتب الأول، فقد قيل: "إن ابن حجر انبرى فألف في دفع اعتراضات البدر على كتابه فتح الباري، فألحق تعديلات بكتابه بعد ظهور عمدة القاري".

منذ فترة جرى حديث بيني وبين أحد الأكاديميين حول تحقيق الدكتور النبوي شعلان لكتاب العمدة لابن رشيق، وسألني قائلا: لماذا حققه وهناك تحقيق للشيخ محيي الدين عبد الحميد، فقلت له: راجع مقدمة الدكتور النبوي في صدر تحقيقه لتعرف الفرق، فالدكتور النبوي لم يحقق الكتاب استدراكًا على تحقيق سبق، وإنما يمكن القول بأن التحقيق الحقيقي للكتاب هو تحقيق الدكتور النبوي، وما فعله محيي الدين كان محاولة نقل الكتاب من الورق الأصفر للورق الأبيض مع إضافة بعض التعليقات والتوضيحات، ومع هذا كشف الدكتور النبوي عن كوارث علمية في تحقيق محيي الدين، وصفها أحيانا بالفضائح العلمية، وأبان فيها عذره للشيخ، لأنه كان يوزع الكتاب على طلاب الدراسات العليا، ليضعوا ملاحظاتهم ثم يدفع بالكتاب إلى المطبعة.

ومما يذكر من مثل هذه المعارك واعتقاد المؤلف في نفسه أنه المتفرد بعمل ما من أعمال المعرفة، ثم وقوعه في حبائل الغيرة والاختصام، تلك المعركة التي دارت بين الشيخ عبد المتعال الصعيدي والدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي، فقد قام الأول يشرح الإيضاح في البلاغة للقزويني، وظل متناولا في أيدي الطلاب عدة سنوات، حتى جاء خفاجي ودبج شرحا آخر عرف طريقه أيضا إلى أيدي الطلاب، فقام الصعيدي بمهاجمته وانتقاده بل تعدى الأمر بينهما إلى التجريح الشخصي، وأصدر الشارح الأول كتابا اسمه (تنوير الطلاب) نقد فيه مسلك الشارح الثاني وقال: إنه عنى بنقل عبارات الحواشي ومماحكاتها اللفظية بأسلوبها الذي لا يليق بعصرنا، فهب الشارح الثاني يدفع الغارة بمثلها، فأصدر نشرات تحمل عناوين مثل « بيني وبين الناقد العالمي البروفسير الأستاذ الصعيدي» و «بيني و بين زعيم المجددين في البلاغة» وقد ذهب في هذه النشرات الى أن الأستاذ الصعيدى خشى من منافسة شرحه الذي كان الميدان خاليا له من قبل .. ومما قاله : « والطريف حقا أن ناقدنا الكبير يرى أن الإيضاح ملك له وأنه كان حجرا محجورا عليه سواء أن يتناوله بالشرح والتعليق، لأن عمل الناقد فيه معجزة الأجيال، ولأنه قد فرضه على الطلاب المساكين فرضا، وحمله إليهم في حقيبته صباح مساء"

و تبودلت النشرات والحملات بين الأستاذين الجليلين كما قيل بعضها في التجريح الشخصي، وبعضها في مسائل العلم، من نحو إسناد بيت من الشواهد إلى غير قائله أو تحريف فيه أو توجيه لقول « المصنف ومما اختلفا عليه : هل مقدمة (الإيضاح) مقدمة كتاب أم مقدمة علم؟

بقى أن أشير إلى أنني حينما ألفت كتابي الأخير عن الدكتور البيومي، علمت أن هناك محاولات أخرى للكتابة عنه من بعض الباحثين، وأنا أرى أن من الخير والنفع أن أكتب أنا وغيري عن الراحل الكريم، حتى تكثر تلك الوجهات التي تعبر عن كل ملامحه، فهو إذن ليس حكرا علي وحدي، بل رحبت كثيرا حينما حدثني باحث مرموق أنه سوف يعد عن الدكتور البيومي كتابا وعن نفس الموضوع الذي كتبت فيه عنه، وهو ردوده على الشيوعيين والعلمانيين، فلم أجد مناصًا إلا أن أرحب بذلك، لأن هذه الأعمال تخدم الحقيقة وتلبي رغبة الأذواق المختلفة، ولا شك أنها لا تعدم الجديد الذي يغاير ما كتبت، بل أعدها صوتًا آخر ينضم لصوتي فيزداد قوة ليهتف الجميع بجهود الراحل

الكريم، بل إنني أنتظر كتابًا ثالثًا ورابعًا وخامسًا، تسير كلها في اتجاه واحد هو خدمة العلم والدين، ولا أغار من هذا ولا أضيق به.. ولله الحمد والمنة.

الشهرة أحيانًا كفر

الشهرة.. آفة مرض هوس رغبة شهوة طموح أمل غرض

غاية هدف طمع جوع جنون سحر.

كلها معان يمكن أن تؤول إليها توصيفاتنا للشهرة.

إذن كيف ينجو الإنسان من آفة الشهرة ؟

إن السبيل إلى النجاة منها، يكون بالعقل والحكمة والتأمل في العواقب.

قد تحب أن تكون مشهورًا، ويشير إليك الناس ببنانهم.

لكنك لا تنظر فيما بعد ماذا ستجلبه عليك الشهرة من تضييق وكبت واختناق؟!

قد تجلب لك السعادة والمال والحضور والاحترام.. لكنها ستقيد حريتك حينما ترى الناس يضعونك دومًا تحت المجهر، فإذا تكلمت تكلمت بقيد، وإذا تحركت تحركت بقيد، وإذا خطوت خطوت بقيد، تعمل للناس في كل ذلك ألف حساب، حتى في ملبسك وطعامك.

يظل عامل الناس شبحًا مرعبًا يهدد حياتك ويخيفك، وكأنك تعيش لهم وبهم، لا تعيش من أجلك ولنفسك.

تفقد سريعًا كثيرًا من المتع، وأقدارًا هائلة من الحرية بسبب الناس.

في ميدان الكتابة نستطيع أن نقول: "إن أكثر العوامل التي تقضي على الكاتب في بداياته، هي الميل المحموم للشهرة واكتساب الجماهيرية، يسارع إليها وكأنه أعمى، نعم أعمى عن تلك الأدوات والمهارات التي يجب أن يستكملها ككاتب قبل أن يواجه الجمهور".

بعضهم ينشر روايته في مطالع تكوينه، وهي ليست على القدر المطلوب من الجودة والاستحسان.

يفرح بها وبأوراقها، ويتخيل أنه صنع شيئًا عظيمًا، فإذا أمعن فيها الجمهور وبدأ يستطلع عنها الآراء، رأى وسمع ما يحزنه، وربما ما يعقده ويعيق استكماله في مسيرة الكتابة.

ليس الخطأ غالبًا في النقد، أو في هذا الجمهور الذي ربما يتهمه الكاتب بالغلظة والحقد، وإنما الخطأ الأول فيه هو، حينما تعجل النشر قبل أن يستكمل عدته ككاتب مكين.

والآن أقول لك: إن الشهرة أحيانًا تكون كفرًا، وتتزيا كثيرًا بزي الإلحاد والفجور!

نعم كفر والعياذ بالله فمن أجلها يندفع كثير ممن لا دين لهم ولا خلق ولا ضمير، إلى الطعن في كتابه وملته ورسوله ودينه، حتى يتناول الناس مصيبته، ويكون حديث المدينة والفضائيات والصحف والمنتديات، يلحد في آيات الله ويسب الصحابة حتى ينال الشهرة.

فمن أجل ذلك يكون الكفر أحد سمات ومكونات الحصول على الشهرة البئيسة.

بل أقبح منهم ذلك الكاتب الأخرق الذي يكتب في الجنس والدعارة الدبية، حتى يسارع إليه الشباب ويرون إبداعه الفاجر وهو يصف جسد المرأة والعلاقة الجنسية بين الطرفين.

ما أفجره وما ألعنه، وما أشد خيانته لأمانة القلم.

أرأيتم ذلك الأعرابي الذي وقف وسط الحجيج ليبول في زمزم، فلما انهال الناس عليه ضربًا، سألوه لم فعلت ذلك؟ فقال لكي أكون مشهورا!.

وليقول الناس كلما رأوه هذا الذي بال في زمزم.

بئست الشهرة هذه ولعن الله أصحابها.

الشهرة في المنهج الصوفي هي أحد الأمراض التي يتعامل معها الصوفية بحذر شديد، فهم يرونها مما يهدد دواعي الإيمان، وحصول القرب بين العبد والرب، ومن ثم يفرون من الشهرة فرار السليم من الأجرب، وفرار الإنسان من الأسد.

ودعوني أصارحكم.. فأنا بشر كالبشر وإن حاولت أن أدعي لنفسي الكمال فهذا كذب وزيف، فالشهرة من هذه الأغراض التي تداعب أحلام المبدعين وخاصة الكتاب وأصحاب القلم منهم، ولعلي أكون ولعًا بها في كثير من الأحيان، وأسعى إليها في كثير من الأوقات، وأشعر براحة النفس حينما أنال قدرًا منها، أو أحقق بعض ملامحها، وإذا كنت أصارحكم الآن بشيء يمكن لغيري أن يخفيه في محاولة لتنزيه نفسه، فإنني أعترف بوجوده في ذاتي، ولكن لا يمكن أبدًا أن يمر هذا النقد الصريح لذاتي، دون أن أتبعه بشيء أراه مما ميزه لها، أو بمعنى آخر يضفي علي هذا الاعتراف

بالعيب، شيئًا يمكن أن يخفف من آثاره، فأنا والحمد لله لا يمكن أبدا أن أكتب بقلمي الذي وهبه الله –تعالى– لي شيئًا مما لا يرضاه أو يحرمه، ولا يمكن لهذا القلم، أن يعتدي على حرمات الله ودينه ورسوله من أجل الشهرة، لا يمكن أبدًا أن أخط حرفًا في ميدان الجنس لألهب فوران الشباب وشهواتهم، لأسوقهم سوقًا للالتفاف حولي، وذلك كله لسبب بسيط جدا وهو، أنني أفكر دائما كيف ألقى الله –تعالى– بهذا الوزر؟ وكيف وأين ذهب ونال من كتبوا هذه الموبقات؟

هل خلدهم التاريخ؟ هل حققوا السبق ونالوا الأوسمة؟

إن التاريخ وضعهم في سلة القاذورات التي أعدها لأمثالهم، حينما لم يقدموا له قيمة، ولم يدعموا بأقلامهم عقيدة أو رسالة.

عمر بن الخطاب أديبًا

منذ بضعة أيام طرحت مقالًا يحمل رؤية ظننتها جديدة حسب فهمي وظني، ولكن تعليقات بعض القراء من أصدقائي جعلتني أستفيق وكأنني بنيت كلامي على وهم وهراء.

وذلك حينما صرحت بأن أم كلثوم أديبة، لما كان لها من مشاهد التذوق السليم وعشقها لعيون الشعر العربي والتغني بتراثه القويم، وعكوفها مع رامي على قراءة الأغاني كاملا، ومختارات البارودي، وديوان شوقي، وكثير من الشعراء العرب القدامى وتدخلها في تصويب بعض القصائد التي تتناغم مع ذوقها، وهو عمل لا يستسيغه إلا محب للشعر فاهم له، وأعلنت في هذا المقال ما فزع له كثير من الأصحاب وكأنني تبنيت أو دعوت إلى نظرية محدثة منكرة في عالم الثقافة والمعرفة، حينما قلت:

أن محب الأدب ومتذوقه هو أيضا أديب، وأن عملية الأدب لا تكتمل إلا بالمبدع والمستمع المتذوق، وإذا لم يوجد الثاني لما وجد الأول... وخلصت إلى أن القارئ المحب للأدب وصاحب الذوق الرفيع فيه، هو كذلك أديب حتى ولو لم يكن مبدعًا.

فاجأني صديقي الحبيب أديبنا العالي د\منير لطفي بتعليق يقول فيه: (للأديب تعريف مستقر، ولا أرى ضرورة لإقحام ما ليس فيه بحسن نية وبعض حماس.. فالقارئ يظل قارئًا ما لم يحدث بقلمه، على اعتبار أن الأديب محدث حسب تعريف العقاد)، والحق أن تعليق وكلام أخي الدكتور منير أصابني بالرعب، لا لاعتراضه علي ولكن لأنه أدرج اسم العقاد الذي حول كلامي إلى عبث.

ومرت الأيام وتناسيت الحدث والكلام، مع إيماني الشديد بوجهة نظري، حتى ولو خالفت رأي العقاد العملاق، ثم أبحرت في قراءاتي الأدبية، حتى وجدت ما يدعمني من الكتاب، بل كانت المفاجأة أنه ليس مجرد كاتب، بل هو إمام من أئمة الشعر واللغة والبيان والنقد، وهو العلامة الراحل د(محمد رجب البيومي) ففي كتابه قطرات المداد وتحت عنوان (عمر بن الخطاب أديبا وناقدا)، تبنى نفس وجهة النظر التي قلت بها، ونفس الدواعي وأخذ يرصد تذوق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- للشعر ودرايته بمعانيه، ومعرفته الجيدة للشعراء، ورصد البيومي ذائقته القوية، التي جعلته يهتم بالجانب الشعري اهتمامًا كبيرًا، ومن ثم جعله أديبا لمجرد هذا التذوق، ونحن نعرف أن عمر لم يكن يقول الشعر ولم ينطق به.. فهل يا ترى كان ما يذكره البيومي مجرد حماسة وعاطفة لعمر -رضي الله عنه.-؟!

إذن أرى أن وجهة نظري قد انتصر لها العلامة البيومي، وأثبت أن الذائقة للقارئ تمنحه كذلك ليشارك الأديب في الاسم والصفة، مع اختلاف الإجراء والطريقة.

ومما ورد في كتاب البيومي الذي لا يمكن الاستغناء عن الرجوع إليه في هذا الأمر لكثرة ما ذكر من استشهادات، نقول نحن الآن ببعضها موجزين: كان عمر -رضي الله عنه- واسع المحفوظات من جيد الكلام حتى قال الجمحي: "ما عرض لابن الخطاب أمر إلا استشهد بالشعر" ولاحظ هنا قوله: استشهد ولم يقل نظم وهناك فرق كبير بين الجملتين، ثم يقول البيومي، ورجل يملك هذه الثروة من القوافي لابد أن يكون ذا ولوع بالمعاني الجيدة، والأساليب الرائعة، فهو ينظر فيما يسمعه نظرة الباحث الناقد، ثم يحفظ ما يروقه ويعجبه، مستشهدًا به في موضعه، مثنيا على صاحبه بما يستحق من تقدير"

طرح البيومي كلاما هائلا واستدلالات قوية على وجود الذائقة الأدبية لدى أمير المؤمنين، فيقول: إن هذه الذائقة كانت سبب إسلامه، فما أن سمع سحر البيان القرآني حتى خشعت نفسه خشوعًا لم يعرفه من قبل، وما ذلك إلا لشدة تذوقه لروعة البيان.

بل يقال إنه ما اصطفى ابن عباس إلا لعلمه وبراعته في الدراية بالشعر وأنهما كانا يختليان الساعات الطويلة يتناشدان ويتطارحان.

بل كان من شدة تذوقه الأدبي أنه كان يكره الشعراء الذين يذمون الإسلام كرهًا عظيمًا، ويبغضهم بغضًا لا يماثلهم فيه مثلهم من نفسه، حتى أن كراهته لأحدهم قد امتدت حتى بعد إسلامه، فقد كان أبو شجرة بن الخنساء شاعرًا ، وارتد عن الإسلام وأخذ يحرض على المسلمين، وكان مما قال:

فروّيت رمحي من كتيبة خالد ❊❊❊ وإنّي لأرجو بعدها أن أعمّرا؟

ثم لما أخفق ورأى الناس يرجعون للإسلام رجع معهم وقبله أبو بكر، ولما كان في خلافة عمر جاءه يطلب منه مالًا لفقره وحاجته، فقال له عمر: من أنت؟ فلما عرفه صاح: أي عدو الله! ألست القائل:

فروّيت رمحي من كتيبة خالد ❊❊❊ وإنّي لأرجو بعدها أن أعمّرا؟

ونأتي في هذه القصة المشهورة التي يرويها القاصي والداني في عدل عمر وإنصاف عمر، ولكنهم للأسف تناسوا أن يرمزوا بها إلى ذائقة عمر .. والقصة هي قصة المرأة التي غاب عنها زوجها وحينما خرج عمر يعس حال الرعية ليلا فمر ببابها وسمعها تقول:

تطاول هذا الليل واخضل جانبه

وأرقني ان لا خليل ألاعبه

ألاعبه طورا وطورا كأنما

بدا قمر في ظلمة الليل حاجبه

فوالله لولا الله لا رب غيره

لحرك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحياء يصدني

وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثم دخل على حفصة ابنته أم المؤمنين -رضي الله عنها- فقال: أي بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهرا واثنين وثلاثة وفي الرابع ينفد الصبر، فجعل ذلك أجلًا للبعث، بأن لا يغيب الجند عن زوجاتهم أكثر من هذه المدة.

هكذا كان عمر –رضي الله عنه– أديبًا لمجرد ذائقته وحبه للشعر والأدب ومحاسن القول، ولم يكن من الشعراء والخطباء والناظمين، ومع هذا كله فقد جعله البيومي أديبًا منتصرا لنظرية الذائقة الأدبية، التي جعلت أم كلثوم من بعده أديبة.

عملاق من المنوفية

لم أكن أتخيل أبدًا أن تقودني قدماي وأنا عازم على حضور الندوة الثقافية الشهرية التي يقيمها صالون الصديق والأخ الأكبر معالي الدكتور النابه (بسيم عبد العظيم) بسيم عبد العظيم في مدينة شبين الكوم.. أنني سأشهد لحظات أستمع فيها لأديب وشاعر من روائع الزمن الجميل، وكاتب روائي موهوب جعلني ألمس في حديثه طيف العمالقة الكبار من الجيل الماضي، ممن نعيش على آثارهم ونهتدي بإضاءاتهم.

وبصدق ودون مبالغة، وفي هذا الزمن الذي عز فيه وندر أن نرى أمثال هؤلاء العظماء، استطاع صالون الدكتور بسيم أن يتحفنا بهذه الدرة النادرة التي غمرها بحر النسيان والتجاهل، لمثل هذا الأديب والروائي والشاعر الكبير الأستاذ (أحمد بسيوني) المولود عام 38 أي قارب 85 سنة.

كنت ذاهبا للحضور وفي ذهني أن أقضي بعض لحظات أستمتع فيها لما يروقني، أو ألتقي بمن يوافقون هواي واهتمامي وأفكاري من المثقفين والمبدعين، فآنس بهم بدلا من هذا الفراغ الذي يؤرقني، والفقر الذي يخيم في قريتي الريفية من وجود هذه الطبقة التي أحبها وأستشعر معها بالأنس والجمال.

ولم أكن أتخيل أبدًا أن القدر يقودني لأجالس رجلا وأستمع لأديب من طبقة الأدباء الكبار في جلالهم وروعتهم وأصالة موهبتهم..

كنت أشعر معه وهو يتحدث أن روح القدماء تحاصرنا وتحفنا من كل مكان، وكانت عيني تخيل لي، أن الحكيم وطه حسين والعقاد وحافظ وشوقي معنا حاضرين، نخامر أنفاسهم، وتزاحمنا أجسادهم.

لم يكن الرجل ممتعا أو قيما في حديثه فقط، وإنما كان مبهرا وهو يحكي رحلة كفاحه التي خاضها موهوبا في سبيل الثقافة، التي وهب لها وقته وجهده وعزمه وروحه وشبابه.

قدم الرجل حياة حافلة بالدروس والعبر، ومحطات مثيرة جديرة بالوقوف عليها والتأمل فيها.

بل علمنا ومنحنا من الدروس الحياتية، كيف يسير الأديب والموهوب والمبدع في حياته، إذا ضاقت به الدنيا ولم يجد من يتنبه له.

لقد وقفت حائرًا أمام هذه القامة التي تتحدث، وأخذت أسائل نفسي: كيف تغيب الأعين والأضواء، مثل هذه القيمة السامقة الفريدة؟، وكيف يتجاهل مشهدنا الثقافي هذا الأديب الكبير في الوقت الذي يحفل فيه بمن لا يساوون نصف أو ربع موهبته وإبداعه وعطائه.؟!

هل لأن الرجل من الجيل القديم الذي لا يحسن استخدام التقنية الحديثة ووسائلها من الفيس بوك وتويتر واليوتيوب فيعلن عن نفسه وكتبه وصولاته الأدبية المدهشة؟ فينال بعض ما ناله من هم أقل منه وأضأل من مكانته وموهبته وأثره؟!

لماذا لم يلمع اسم الرجل؟ ولماذا لم تحتف المنصات الثقافية بأدبه وموهبته وأعماله المتميزة، ولماذا لم تُقبل عليه القنوات الفضائية وتستضيفه الصحف والمجلات والأندية؟!

لكنها طبيعة أمتنا التي تهدر نوابغها وتتنكر لأفذاذها، ومن ثم فلا عجب ولا تعجب ولا دهش!

أكثر من ثلاثين كتابًا أنتجها هذا الأديب ما بين الشعر والمسرحية والرواية والفكر والنقد، في ظل حياة طويلة محملة بكثير من المشاهد الثرية المدهشة التي كونت هذا الأديب وأثمرت موهبته الفذة، التي تفتقت وبانت ملامحها منذ صغره وصباه، وأدركها هو في نفسه وأخذ ينميها ويستجيب لها ويعمل على إثرائها، لقد بان له أسلوبه المميز وذائقته وموهبته التي تبشر بميلاد أديب له شأنه، لو أنه اهتم بها، وأنمى جذورها ورعى منابتها.

كانت أول هذه البشائر كما حكي لنا وقص من مطالع مسيرة حياته، ذلك اليوم الذي دعته جارة لهم، كان ولدها قد هجرها منذ سنوات وسكن القاهرة، وما عاد يسأل عنها أو يراعيها وهي كبيرة السن، جاحدا منكرا مهملا لأمة ومشاعرها، كانت الأم ملتاعة تتمنى أن ترى ولدها الذي جافاها، إنها تعرف عنوانه وتراسله دومًا ولكن لا مجيب ولو حتى بمجرد خطاب يهدئ به روعها، وذات يوم وجدت أم شوقي الصبي أحمد وهو ابن سبع أو ثمان سنوات، يلعب في الشارع، وقالت له: تعالى يا أحمد انا عاوزاك، فقال لها نعم يا خالتي أم شوقي، هل تعرف تكتب؟ ابني سايبني وقاعد في القاهرة ولا يسأل عني ومحتاجاه يزورني وعاوزاك تكتب جواب لابني، فقال لها: طبعًا أعرف، وذهب أحمد

ليكتب الخطاب وسبكه لها حسب تعبيره، ووضع عليه العنوان وانتهى منه، وبعد أيام كان يجلس في بيته وإذا به يسمع هرجًا ومرجًا وزيطة ومولد وزغاريد تضج من بيت جارتهم أم شوقي، ولما سأل عن هذه الجلبة، قالوا له: لقد عاد ولدها الغائب، الذي تأثر بخطاب الصبي أحمد من أسلوبه الشجي العاطفي الأدبي الذي حشد له فيه كل عبارات الشوق والشغف والحزن الذي اعتصر قلب أم تتلهف على ولدها.

رجع الولد الغائب وهو يبكي ويطالب أمه أن تسامحه، وتعفو عنه، وتغفر له جفوته وعقوقه، الذي انهار أمام هذه الكلمات التي أرسلتها في خطابها.

وكان الجندي المجهول الذي حقق هذه المعجزة، هو الصبي الموهوب أحمد بسيوني، الذي سعد كثيرًا ومنحته هذه النتيجة أن يثق في موهبته وأدبه، ويعرف أنه أديب يشق طريق الكلمة المؤثرة.. لقد كتب له عن بر الوالدين وفضل الأم، وأرعبه بتعبيراته مما جعله يسارع ليزور أمه.

أما الموقف الثاني فكان ذات يوم وجدته ابنة عمته التي تكبره سنًا وهو في صباه منهمكًا في الكتابة بكراسة له جعل عنوانها الأشقياء، فقالت له: ماذا تفعل يا أحمد؟ فقال لها أكتب خواطري الأدبية، فقالت له: على العموم أنا لا أفهم في هذا الكلام، لكن هاودي الكراسة دي لصاحبتي عواطف هيا بتفهم في الحاجات دي وفي مدرسة الملعمات وهاتبقى مدرسة السنة الجاية وهيا اللي هاتحكم.

قال لها: لا مانع .. لأنه يتلقف التأييد من أي أحد.

فأخذت الكراسة وبعد أيام جاءت بها، ووجد أحمد أن عواطف قد كتبت على الكراسة هذه العبارات التالية: أجبرتني أن أكتب إليك رسالتي، فلما أمسكت بالقلم وجدته ينساب على ورقتك الرقيقة معبرا عن عبقريتك التي تفوق سنك، فأضرع إلى الله أن يحفظك ويحفظ لك هذا الإلهام والله هو الموفق.

يقول: بعد هذه الرواية لقد وعدني الله بأناس يدعمونني ويحمسونني ويدفعونني للاهتمام بموهبتي.

وفي مشهد ثالث من مشاهد التحفيز يقول: حينما ذهبت إلى الصف الرابع الابتدائي، كان مدرس اللغة العربية، وكان هؤلاء المعلمون قديمًا يتبنون المواهب ويشجعونها ويهتمون بها، ويوما ما أنشأ لنا

مسابقة تعبيرية وكتبت الموضوع مع زملائي، وفزت بالمركز الأول وأعطاني المعلم قلم حبر هدية، وكان هذا الموقف كذلك مما زادني ثقة في نفسي.

أكتفي بهذا القدر الطريف مما حكى الأديب والشاعر الكبير من مسيرة حياته، ولكن اللقاء كان مثيرًا ومؤثرًا لأبعد حد، وبه كثير من اللقطات الجميلة التي تستوقف عشاق الأدب والثقافة، لكنني لا أخفيكم أنني استأت كثيرًا من عدم معرفتي بهذا الرجل من قبل، فهل هو لجهلي أم لتقصير منه في معالم البروز، لا أعلم.. ربما كل ذلك، لكن يبقى الشكر الجزيل للدكتور (بسيم عبد العظيم) أن أعطانا فرصة التعرف على هذه القامة الفريدة والموهبة الرائعة.

غرور اللغويين

كثير من المغرورين من علماء اللغة والمتخصصين فيها، يفزعون إذا رأوا عالمًا من العلماء في غير تخصصهم، يبزهم في ميدانهم ويتفوق عليهم، فإذا فريق منهم يستنكرون، وفريق آخر يتحول الأمر في نفسه إلى صراع ومعركة شخصية، وربما ينتقل إلى حقد وكره وبغض لا حدود له.

شاهدت هذا بنفسي حينما كان شيخنا العلامة الدكتور محمود عمارة، آية من آيات الله في البيان والبلاغة، وهو من شيوخ الدعوة والمتخصصين في فنون الوعظ الديني، لكن الرجل وبشهادة الدكتور حسن جاد حسن، الذي كان مرشحا لعمادة الأدب العربي بعد الدكتور طه حسين، يشهد له بالتفوق اللغوي والتميز البياني، ويقول عنه حينما يسمعه في الإذاعة: إنه يذكره بالرافعي وطه حسين، وهذه الطبقة الفريدة من الأدباء.

كان الدكتور عمارة شيخًا من شيوخ كلية أصول الدين التي تجاور كلية اللغة العربية في مدينة شبين الكوم بالمنوفية، وحينما كان يدعى لندواتها، يخيل إليك أنه من علمائها وأساتذتها الكبار، لما كان يتسم به من التبحر اللغوي والتفرد الأدبي.

لكن بعض الحقدة كان يحب أن يكون ممن ينكرون ضوء الشمس في رابعة النهار، ويصر أن يناطح الحقيقة، فيتقول على الشيخ بمقالات، لا ترى وراءها غير حقد طافح، وغلو أسود، ونفس بئيسة مظلمة.

ولعل الشيخ عمارة قد تأثر في هذا المزج بين العلم والأدب بتوجيهات أستاذه وشيخه محمد الغزالي، الذي كان يتكلم في هذا الموضوع بوضوح وبيان فيقول في كتابه (مع الله):

"والداعية الذي يشعر بغربة في ميدان الأدب يجب أن يترك ميدان الدعوة لفوره".

فإن الذي يحاول خدمة الرسالة الإسلامية دون أن يكون محيطًا بأدب العربية في شتى أعصارها إنما يحاول عبثًا.

وأنَّى لرجل محروم من حاسة البلاغة أن يخدم دينًا كتابه معجزة بيانية ورسوله إمام للحكمة وفصل الخطاب!

الداعية لابد أن يدرس آداب العربية القديمة والحديثة، وأن يدرب نفسه على الأداء العالي والعبارة الرائقة.

وليس القصد أن يكون كلامه إنشاءً منمّقًا كلا فهذا مزلقة له ولرسالته.

وإنما القصد أن يحسن صوغ العلم النافع والحقائق الركينة في أسلوب يُبرز ما فيها من نفع وقوة.

وقد قالوا: "إن الخط الحسن يَزيد الحق وضوحًا"

وكذلك القول الحسن والخطاب الجميل.

وحينما دعي الدكتور عمارة إلى الحديث في برنامج (رأي الدين) بإذاعة القرآن الكريم، ليرد من خلاله على فتاوى السائلين، في أمور الدين والمسائل الفقهية، لازمه منهجه الأدبي في الرد والإجابة، وهو مما أغضب البعض منهم، حيث يقول الدكتور نفسه في مقدمة كتابه (رأي الدين): "طلب مني أن أسهم في برنامج رأي الدين .. وبريد الإسلام، وكنت أرغب في الرد على الأسئلة ذات الطابع الاجتماعي، لكن إسهامي لم يدم طويلا بعدما تردد في أوساط إعلامية بأن (الفتوى تأدبت) وكأنما الفتوى المتأدبة نشازًا في لحن متناسق، فاستغنى القائمون على البرنامج عني، لأنني متأدب والفتوى لا تعرف الأدب، ولقد كان ذلك عيبًا أعتز به، وهو المعنى الذي قصد إليه الشاعر القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ** بهن فلول من قراع الكتائب

إنهم يريدون الفتوى معلبات مصنعة، تقدم جاهزة لمن أراد.

أذكر فيما قرأت أن دعي الدكتور محمد رجب البيومي لأمسية ثقافية تضم أدباء من مصر والسعودية بالمعادي، وفي هذه الأمسية دار الحديث عن مسائل أدبية وتاريخية كثيرة، وجاء ذكر الإمام مالك – رضي الله عنه–، وكيف عذب في ذات الله، لأنه أفتى بأن طلاق المكره لا يقع، فاكتفى المتحدث بذلك، حتى قام أحد الحضور، وتناول المسألة من وجهها الفقهى، فعرض آراء الأئمة في طلاق المكره، فذكر من غيب صدره وكانه يقرأ في كتاب، أن فقهاء السلف قد اختلفوا في طلاق المكره فروى عن إبراهيم النخعي أنه يقع، وذكر الشافعي أنه لا يقع، بدليل أن الذي يكره على قول الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، لا يعتد بما أكره عليه، وذلك في الإيمان، وهو أقوى أثرًا من غيره، فكيف بالطلاق، وأيد الشافعي منحاه العقلي بما روى عن الصحابة، ثم أفاض المتحدث في خلاف كبير بين المالكية ذكره العلامة الشيخ أحمد الدردير في شرحه على متن خليل. ولمس البيومي أن إلمام المتحدث بما يدل على أنه فقيه كبير من رجال التشريع! وسأل عنه فقيل له إنه الأديب الكبير الأستاذ عبد القدوس الأنصاري صاحب المنهل، فزاد إعجابه به يقرأ له أبحاثه ويجدها موزعة بين الأدب والتاريخ والآثار!

ودفع ما سمع أن ينتقل إلى جواره ليسعد بمعرفته، ويبدي له إعجابه بتبحره الفقهى على ذيوع شهرته في عالم الأدب، وابتسم الرجل، وقال للبيومي إنه تلقى علوم الشريعة بجوار علوم الأدب على يد أستاذه وعمى الشيخ محمد الطيب الأنصاري، الذي كان لا يفرق بين مواد الثقافة الإسلامية، إذ هي لديه في مستوى واحد، وقد قام على تدريس مواد مختلفة! فكان درس الأدب لديه يجاور درس الفقه والحديث، ودعا الأنصاري رجال التعليم في الكليات الإسلامية ألا يفصلوا هذه المواد، لأن الفقيه لا يكون عالمًا إلا إذا درس علوم العربية، كذلك لا يكون الأديب أديبًا إسلاميًا إلا إذا درس علوم الشريعة!

ولاحظ المجتمعون همسهما، فاستفسروا عن جليته، فانبرى الأستاذ الأنصاري يتحدث بلسانه المبين عن وثيق الصلة بين العلوم الثقافية، التي يجب أن يلم بها الأديب العربي، ثم أعلن أنه يشكو من مقالات تجيئه من بعض أساتذة الفقه تحتاج إلى تقويم في الأسلوب، كما أنه تحدث عن أدباء كبار في مصر والشام والعراق فوجد فيهم من لم يقرأ كتب التفسير والحديث، وهو عيب خطير، إذ لا يجوز

للأديب الجدير بهذا الوصف أن يزهو بقراءة الروايات الغربية المترجمة! ثم لا يعرف شيئًا عن رسالة الشافعي، وموطأ مالك، ومسند أحمد.

وهكذا كانت اللغة والعلم وجهان لعملة واحدة.

اعرفوا أصل الحكاية

كثير ممن يحبون وينهجون السخرية من تراثنا الفقهي والعلمي، يتاح لهم ذلك بكل يسر وسهولة، حيث تراهم يركزون على نقاط وردت في بطون الكتب القديمة التي كتبت منذ مئات السنين، وعبر أزمان وعقود ماضية..

الموقف لاشك لنا نحن ممن يعتزون بانتمائهم الديني قمة في الحرج، حيث ندور نبحث عن تبرير لهذه الهنات فلا نجد، حتى بعض الفتاوى الغريبة لا نجد لها حلًا، ونشعر أننا تورطنا في الأمر، أو أن هؤلاء الفقهاء القدماء قد ورطونا في أمور ما كان أغنانا عنها.

ويظل المرء تائهًا في نفسه يدور حائرًا مع بعض الأسئلة المريبة، التي يختلط بها لوم عنيف لهؤلاء الراحلين، كيف يكتب هؤلاء الناس مثل هذا الكلام، ما الذي دفعهم للخوض في هذه الدوائر المريبة، والموضوعات التي تفوق علومهم ودراياتهم، ليصيروا اليوم وكأنهم منجمين، وقد أعطوا رقابنا قبل رقابهم للكارهين للإسلام والمنفرين من تراثه وعلومه؟

وهذه الهنات التي يتلقفها أعداء التراث والهوية من العلمانيين واليساريين والملحدين، وأعطتهم الفرصة ليهللوا تشنيعا وتسفيها وسخرية، لها أصل وسبب، لو عرفناه لزال بعض العجب.

كان الناس في بعض الفترات والعهود التي مرت بالمجتمعات الإسلامية، ينظرون للفقهاء والمحدثين نظرة الإحاطة بكل شيء، وأنهم كل شيء في الحياة، وأنهم علماء بكل شيء في الدنيا، ومن ثم كانوا يسألونهم في غرائب الأشياء والعلوم والأمور، والداهية أن هؤلاء الفقهاء أنفسهم لم يكونوا يدركون هذا المعنى ويصدقونه في أنفسهم، ولا يدرون أن هناك علوم وراء علومهم، أو تخصصات أخرى يمكن لها أن تجيب الحائرين فيما بعدعن أسئلة تخص هذه العلوم، كانوا يتصورون كما قيل: أن الفقه والحديث يمكن لهما أن يجيبا على كل شيء في هذه الدنيا ومستجداتها قديمها وجديدها معلومها ومستورها، سواء اتصل بالطب أو الفلك أو التاريخ أو علم الجيولوجيا وما شئت وتخيلت من

مختلف العلوم، هكذا كانوا يتخيلون، وهكذا وضعهم الناس في هذا الموضع، فإذا سئل في أي شيء، ما عليه إلا أن يبحث ويجتهد في البحث، ويقلب هنا وهناك ليجد ضالته أو ما يشير إليها أو قريب منها، ولو كانت حديثًا ضعيفًا أو مقولة لأحد العلماء، فيكون ذلك هو الجواب والصواب، ومن ثم امتلأت بطون بعض كتب الأولين بالغرائب المرفوضة، التي لا يتقبلها العلم والتطور وما تجلى به الحاضر من معارف ومعالم.

نعم كان الفقهاء يخترقون كل العلوم وكل التخصصات دون احترام لتفرد، لأنهم كانوا كل شيء وكما وضعهم الناس ليكونوا كل شيء.

سئل أحدهم يوما عن السواد الذي يلمحه الناس في القمر، ولم يكن له إلا أن يجيب بأنه الفقه المحدث، فبماذا أجاب وأفتى؟ لقد قال بأن عليا -رضي الله عنه- سئل عن هذا فأجاب بقوله: إن هذا السواد هو أثر مسح جناح جبريل، لأن الله -تعالى- خلق نور القمر سبعين جزءا كنور الشمس، فمسحه جبريل بجناحه فمحا منه تسعة وستين جزءا حولها إلى الشمس، فأذهب منه الضوء وأبقى فيه النور، فذلك قوله -تعالى-: "فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة".. ويفتي كذلك بأن القمر يقطع الفلك في شهر والشمس لا تقطعه إلا في اثني عشر شهرًا.

وياها من أقاويل تثير الضحك ممن أبان لهم العلم الحديث كثيرا من هذه الأمور، ليتخذوها بينهم سخريا.

وليت الأمر وصل إلى هذه العلوم الخارقة فحسب، بل شمل كل شيء حتى في المطعومات والنفس والطب والغيوب والعوالم الخفية.

كما كان الناس بارعين وقتها في افتراض الأسئلة الخارقة للعقل والمنطق، يطرحونها على الفقهاء، ومن ثم يجيب الفقهاء عليها ببارع الردود، ولكنها أثارت السخرية عليهم في أزماننا المتحضرة، كان الناس قديما يعيشون في ترف فقهي، فيهزلون ويتسلون، لنأتي نحن اليوم فنعاني من هذا الترف أو السخف الذي كان طبيعة الناس في هذه الأزمان الماضية.

لكن على كل المعتدين على التراث والمتهجمين على بعض كتبه أن يدركوا، هذا الأصل ويعلموا ماهية الحكاية، ولا يبغتونا بسخريتهم المباشرة، ويعيروننا بماضينا، لأنه هكذا كانت الأحوال والطباع والعقول.

ليست طبيعة تراث، وإنما قبل ذلك طبيعة شعوب وعقلية مجتمعات كانت تعيش هذه الأوقات، وهي الظروف التي يجب أن يدركها من يهزأ ويسخر ويدعوا لطمس التراث واتهامه بالتخريف والسفه.

ولا يجب أن نغفل أن هذا النمط العصري، لم نسحبه على كل العصور الإسلامية، ولم يكن هو حال كل المسلمين في كل أزمانهم، ولا طبيعة كل الكتب الخالدة التي تنطق بالنور والحكمة والهداية، وإنما هي أزمان خاصة وأوقات معلومة شهد بها هذا التراث الباقي عن أيامهم.

الفرق بين يوسف إدريس والحكيم

عقد العلامة الراحل د. محمد رجب البيومي مقارنة بين توفيق الحكيم ويوسف إدريس على هامش ما أثار كلاهما من لغط ومعارك مع العلماء في القضية الشهيرة "حديث مع الله" لتوفيق الحكيم، وما تبعها من تجاوزات يوسف إدريس في حق العلماء فقال ما نصه:

"الفرق بين الرجلين بعيد؛ فالأستاذ الحكيم مثقف ضليع له قراءاته في الفن والأدب والفلسفة، وميزانه الراجح في قضايا النقد الأدبي، وكل ما يؤخذ عليه أنه اقتحم حمى لم يؤهل له، وهو حمى العقيدة التي تتطلب دراسات عميقة في الكتب الدينية المعترف بها.

أما الدكتور يوسف إدريس فموهوب في كتابة القصة القصيرة وحدها، ولا شيء غير ذلك، وقد ظن أن انتشار قصصه يتيح له أن يتكلم في كل موضوع، وأن يكون رجل فكر رائدا؛ فأخذ يتطاول على العلماء، وعلى كثير من المقررات الثابتة دون أدلة ما، بل كلمة من هنا وكلمة من هناك"

لعلي في هذه القضية الساخنة أقدم كلام العلامة البيومي، ليكون المظلة التي تقيني من لسع المخالفين، او كالقبة الحديدية التي تحميني من راجماتهم الصاروخية.

هذا هو المعنى الذي تناولته قديمًا وتحدثت عنه كثيرًا ورأيت لساحة الأدبية تعج به، وكم نبهت ونصحت وبينت وحذرت كثيرًا ممن لهم باع في الصحافة والأدب وطالبتهم بالتوقف عن الفكر

والولوغ في عالمه، فليس معنى أن أحدهم أمسك بالقلم وصار له جمهوره ومريديه، أن يتخيل أنه يستطيع الكتابة في كل شيء وفي كل علم، أشاهد كثيرًا من كتاب الروايات والقصص القصيرة، وعددًا كبيرًا من الصحفيين وهم يأتون بالمبهرات العجيبة حينما يزين لهم الخداع العقلي، فيخرجون من خيمتهم التي عرفوا بها، ليفضحوا أنفسهم في العراء حيث يشاهد الناس جهالاتهم المضحكة.

قلت كثيرا للأدباء: حدد مسارك ابتداء، هل أنت أديب أم مفكر، هل أنت صحفي أم مثقف، لا يمنع أن يجتمع الأمران معا في صاحب قلم، وكل حسب اجتهاده، لكن قومًا لا باع لهم في الفكر والعلم كيف يتخطون حدودهم، ويتعدون أطوارهم، وبنفس القلم الذي يكتبون به الرواية والقصة يكتبون في قضايا الفكر والعلم ويحكمون فيها؟

خرجت علي متفلسفة مرة لتقول: وما الأديب إلا من أعظم المفكرين، فكل ما يخطه ويجسده في روايته إن هو إلا فكر، وتلك مغالطة بعيدة عن إطار ما أتحدث فيه، فكل إنسان حسب منطقه يمكن أن نصفه بأنه مفكر، حتى اللص المحترف الذي يخطط ويدرس لعملية السرقة التي يريد تنفيذها، فهو بهذا التخطيط والتجهيز يمكن أن نعده مفكرًا.

لكنني حينما أتحدث عن قضايا الفكر فأقصد العلم والوعي والفهم المبني على دراسة وقراءة وتخصص وباع طويل في قضايا الإنسان والحياة والدين والمنطق والفلسفة ومختلف العلوم التي تؤهله ليفتي ويتكلم ويبين ويحكم ويقوم.

حالة يوسف إدريس هي بكل صراحة ووضوح حالة كثير من أدباء هذا الجيل، تجده روائيًّا جيدًا وقصاصًا موهوبًا، لكنه حينما يحشر نفسه في قضايا الفكر بلا باع له فيه، يتمثل لي في هيئة المهرج الذي يريد أن يعجب الناس به، لكنه يتناسى أنهم يضحكون عليه.

نعم يُضحكون الناس عليهم، حينما يظنون أنهم يبدعون كما يبدعون في الأدب والرواية، ولكنه ظن واهم يضر بهم قبل أن ينفعهم.

الأديب الذي أضحك الناس عليه

تناولت في مقالي السابق الفرق بين الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور يوسف إدريس، وذكرت فيه أنني مع هذه القضية الساخنة أقدم كلام العلامة محمد رجب البيومي، ليكون المظلة التي تقيني لسع

المخالفين، أو كالقبة الحديدية التي تحميني من راجماتهم الصاروخية. ولقد دافع بعض أصدقائي عن الدكتور إدريس نافيًا كلام البيومي، وأن الرجل صاحب فكر قويم، شهدت بذلك كتبه الأخيرة.

والحق أن الرجل بما دلت عليه آثاره، وما ترك من ذكراه، شيء واهن باهت غثاء في دنيا الفكر.

لقد كان الدكتور إدريس ممن قاموا بمهاجمة الشيخ الشعراوي، وكانت له معه معركة، ولكنها كانت من طرف واحد، فما كان الشعراوي ليغرق نفسه، ويجعل منها طرفًا في معركة مع من لا شيء، أو أن يقيم ذكره مع من هو دونه، ليجعل له قيمة.

ويبدو أن الغلو قد ساق الدكتور إدريس لأبعد مدى من فجور الخصومة، حينما قام باتهام الشيخ الشعراوي وتكفيره له وأنه كراسبوتين الدجال الروسي الذي ضجت من شره السماوات والأرض.

وعرّض بسمعة الشيخ ونزاهته وادعى أنه لا يقنع إلا العقول البسيطة بينما أمثاله يتعالون عن منطقه، وذكر أن الدولارات تملأ خزائنه دون حساب،

وأن الشيخ نصف ممثل موهوب.

كان يوسف إدريس فيما فعل، يذكرني بما حدث قريبًا حينما أقدمت ممثلة إغراء تافهة، بسب لاعب الكرة الشهير المحبوب محمد أبو تريكة، فلم تتوقع موجة السخط العارمة التي أفقدتها جماهيريتها وتعرضت للنقد العنيف من كل مكان، فسارعت صاغرة لتدرك نفسها وتعتذر، وهذا تماما ما حدث مع يوسف إدريس حينما وصف الشعراوي براسبوتين، وقد كانت هذه الهنة والسقطة التي وقع في شركها يوسف إدريس حينما سجل كل ذلك في كتابه "فقر الفكر"، فأهاج عليه الدنيا قاطبة، وفوجئ بما لم يكن يتخيله أو يتوقعه، فلم يتلق الهجوم من الشعراوي نفسه، وإنما من طبقات الأمة على اختلاف مشاربها ومثقفيها، من رجال الفكر وأساتذة الجامعات ونواب الأمة من الوزراء والمحاماة والأطباء الكل هاجمه وعدوه ساقطًا في كل ما قال من افتراء وزيف.

ولم يرد عليه الشيخ بكلمة واحدة وقابل هجومه معتصمًا بقول الله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: (٦٣).

كان صمت الشيخ أمام هجمات إدريس يزيد من جنونه وسعار حقده، ويكثر من استفزازه، يتمنى أن يرد عليه الشيخ، حتى يتبدى للناس أنه بطل أمام بطل، وأن هناك معركة بين النور والظلام، بين الرجعية والتخلف، حسب ما حاول إيحاءه وتصويره.

رأى إدريس نفسه أنه قد تورط، وركبه الشطط فيما ادعاه من إفك وافتراء، وأن الدنيا كلها تبصق عليه وتنبذ فعله، فاضطر مجبرًا على الاعتذار، ولكنه الاعتذار الذي أضحك عليه الدنيا كلها حينما كتب في بيان نشره يقول فيه للناس: "إن المطبعة قد زادت كلمات لم يكتبها، وأنه فوجئ بها في الكتاب!"

كان العلامة محمد رجب البيومي ممن دافعوا عن الشيخ وسجلوا هذه الواقعة فقال: "وهذا من أضحك ما يقال، فالمطبعة تخطئ في إسقاط حرف أو تكرار كلمة أما أن تكتب اسم راسبوتين وترمي الشيخ بابتزاز المال من كل جهة، وبقيادة البسطاء لا العقلاء، فأي مطبعة هذه تلك التي تشارك المؤلف أفكاره، بل تفرض عليه ما لم يقل ؟!"

وفي رده على شبهة التلقي قال "وكلام الدكتور لا يلمس نقطة علمية واحدة يجادل فيها الشيخ، ولكنه محض افتراء؛ فالشيخ أولا لا يُقنع البسطاء من الناس وحدهم، ولكن ذوي العقول المستنيرة قد عكفوا على أحاديثه، وتناقلوا آراءه بحيث أصبح مجدد الإسلام في الربع الأخير من هذا القرن".

وأما ما ذكره من أموال وكأن الشيخ قد نهبها نهبًا من إدارة حكومية كان يرأسها، ولم تكن مما رزقه الله به لينفقه في وجوه الخير ويغيث به بلاء الناس.

قال البيومي: "أما المال الذي يأتي إلى الشيخ من كتبه وإذاعاته، فليته كان أكثر مما جاء؛ لأن الشيخ وزع الكثرة الكاثرة منه على الفقراء والمنشآت العلمية والمُجمَّع الذي يشمل الثقافة والطب والعبادة في بلدته، والموائد والتبرعات التي لا تقف عند حد، ولو كان يوسف إدريس وطنيًّا صادقًا لحمد للشيخ بذله الآلاف لمواطنيه ولدعا الأغنياء إلى الاقتداء به، فإذا عارضه فكريًّا فلا بد أن يؤيده سلوكيًّا، ولكنه يريد أن يهجم دون دليل غير الافتيات، لم يتراجع يوسف إدريس لينصف الشيخ؛ فهذا ما لا يطرق له ببال، ولكنه تراجع بتبرير مضحك؛ لينقذ نفسه من صيحات الاستنكار التي رمت به في هوة الاستخفاف، ولست هنا أتجنى عليه، ولكني أسجل ما كان

ثم ذكر مولانا البيومي ما يجب أن يتذكره كل من يدافع عن الدكتور إدريس، فقد كان من غلاة التغريبيين وخصوم الإسلام فهو الذي قال دون خجل أو حياء، شأنه في هذا شأن كل المارقين: "إن الإسلام سر التأخر الملموس في دول الإسلام، وأن الإسراع بالرقي لا يكون إلا عن طريق النهضة الفكرية في أوروبا"

هكذا كانت المعركة، وهكذا كان الدفاع، وهكذا كان التبرير المضحك.

Contents

مقدمة 3

احترموا تخصصكم 4

الجرأة على النقد 6

جماهير بلهاء 8

أين ذهب بريق الروح؟ 11

لماذا فقدت المساجد بريقها الروحي، ولماذا مع كل مسجد قديم ينهدم، ويقوم خلفه مسجد آخر على فنون العمارة الحديثة، نشعر أننا فقدنا أرواحنا ومتعتنا، وإحساسنا بدفء الإيمان، وبريق الروحانية؟ 11

آه يا ليلى 12

تنبهوا لما خفي عنهم 14

أدباء عاشقون 17

شبح المعاش 19

إلى الفتاة التي سألت 22

قوة التأثير 24

التراث الضائع 26

اسمك ونقيضه 29

الرجل الذي أتعبنا 31

أزمة الإهداء 34

ارفع يدك عن طه 37

احذروا أبناءكم الجهلة 40

لا مجاملة 41

المري وجراحي القديمة 43

الذين حرقوا المعرفة 46

الكتاب الذي فقدته 48

الردود المظلومة 50

بدون معلم 52
ما ينطق عن الهوى 53
وداعًا زمن الحرمان 56
الثقافة أم السياسة؟ 58
يا أرض انشقي وابلعيني 61
مذكرات مجهولة 64
أرجوك لا تلمني 65
طلاب دار العلوم كفار! 69
مذبحة فكرية 72
العامية لغة المفلسين 73
الشهرة حظوظ وظروف 75
أم كلثوم.. أديبة 78
أنا لم أفهم شيئا 80
الصور المُلهمة 83
الصداقة يمكن أن تموت 85
السياسة عالم مهين 88
فن قراءة الوجوه 90
ما أروع الظلم! 93
سلطان العادة وإلف المنكر 95
دفاع عن مصر والمصريين 97
السياسة مقصد الأدباء 99
التهمة.. يهودي ! 101
التاريخ الأدبي يرحمكم الله 106
العلم ليس حكرًا عليك وحدك 109
الشهرة أحيانًا كفر 112
عمر بن الخطاب أديبًا 114
عملاق من المنوفية 117
غرور اللغويين 120
اعرفوا أصل الحكاية 123
الفرق بين يوسف إدريس والحكيم 125
الأديب الذي أضحك الناس عليه 126